

حمزة الهاشمي

مبتعث في السودان

مبتعث
في السودان

مبتعث في السودان

حمزة الهاشمي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2016 م - 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2080-8

تـوزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

المحتويات

إهداء

إلى عائلتي الكريمة..

إلى جامعتي الحبيبة..

إلى فاتنتي السمراء..

-1-

الانطلاقة

مشيناها خطى كُتبت علينا.. ومن كُتبت عليه خطى مشاها.

عبد العزيز الدريني

في صيف 2007، انتهت لتوها اختبارات المرحلة الثانوية (الثالث ثانوي) في المملكة العربية السعودية. لم يكن صيف هذا العام على غرار الأعوام السابقة، حيث كان الصيف في الأعوام السابقة فرصة للسياحة والسفر والمناسبات العائلية. صيف 2007 كان مميزاً، لأنه يعتبر المرحلة الفاصلة في حياة خريجي المرحلة الثانوية. انتهت المرحلة الثانوية، وأصبحنا على أبواب المرحلة الجامعية، ولكم أن تتصوروا مشاعر وتوجسات الخريجين في تلك الفترة. بدأت الحيرة تعصف في الأذهان والنصائح تنهال سحا طبقا على عقولنا الصغيرة ولا تكاد النصائح أن تكون نهائية بالشكل الذي يتيح لك الاعتماد عليها، بل على العكس تماماً كان الناصح يختم جملته بالمثل المعروف (لكن مثل ما يقولون ما خاب من شاور، وانت اسأل وشوف وعينك ميزانك) الأمر الذي كان كفيلاً أن يزيد من حيرتنا أضعافاً. وتبعاً لذلك، ابتدأت رحلتنا

حول المملكة محاولين طرق أبواب الجامعات والكليات والمعاهد علنا نجد ضالتنا فيها بما معنا من درجات وشهادات. كالغالبية العظمى كانت رغباتنا تبدأ بالطب والهندسة بمختلف مجالاتها وهكذا حتى ننتهي إلى العلوم النظرية. بالنسبة إليّ كنت ميالاً إلى الهندسة المدنية، لم تكن مهنة أحد من الأسرة أو المعارف ولم تكن صورتها واضحة جلية بعد ولكن ربما اسم وسمعة هذه الهندسة اجتذباني نوعاً ما. تابعت مهمتي في طرق أبواب الجامعات المحلية أينما كانت، وكالعادة كان الرد (بندق عليك)!

بعد أن انتهينا من التقديم في الجامعات (وسوينا اللي علينا وتوكلنا على الله) عدنا إلى مناطقنا لأخذ استراحة محارب. كدت أن أنسى ما ينتظرني بعد هذا الصيف لطول الاستراحة، ولكن وعلى حين غرة جاء البشير بالبشرى وجاءت الأخبار السارة أو كما ظن ناقلها. (يا ولد يقولون فيه تقديم للمنح الدراسية برا المملكة، تخاوي؟) هكذا جاء صديقي بالبشرى وما كان ردي إلا (قدام).

بناء على خبرتنا السابقة في التقدم للجامعات لم يكن يحدونا الأمل بالقبول في برنامج المنح الجامعية خارج المملكة، ولكن ذهبنا للتقديم بين أرتال المتقدمين وجموعهم الغفيرة. كانت هناك مقابلات شخصية مع المتقدمين وبناء عليها تم اختيار مجموعة واستبعاد أخرى. لحسن حظنا أو لسوء حظنا كنا مع المجموعة التي تم اختيارها – ولي أن أكون ممتناً لمقدرتي الشعرية التي أعطتني ميزة إضافية في وقت المقابلة ونالت من إعجاب القائمين على المقابلات – وبعد ذلك تم إخضاعنا لاختبارات ورقية ليتم اختيار وقبول مجموعة أخرى من بيننا.

وبعد أن تم اختيارنا مرة أخرى – للأسف لم يقبل ذلك الصديق معنا – كان علينا أن ندون رغباتنا الدراسية بالترتيب دون أن نملك أدنى فكرة عن مكان أو دولة المنحة أو الابتعاث. (يعطيكم العافية، بندق عليكم) طبعاً كان هذا الرد المعروف ولكم أن تتخيلوا الأمل (الكبير) الذي نشعر به عندما نسمع هذه (التصريفة).

عدنا للاستمتاع بالفراغ الكبير الذي نملكه مبتهلين إلى الله أن (يكتب اللي فيه الخير). أصبح الوضع حينها مصدر إزعاج لنا ومصدر أحاديث وأخبار للعائلة الكريمة والجيران والمعارف، (بشر ما لقيتوا شي؟ ما قبلوكم؟ ورا ما شفت الجامعة الفلانية؟ يللا كل شي نصيب، علها خيرة). ولكن على عكس العادة:

- حمزة الهاشمي؟!
- إيه نعم.
- انت كنت مقدم للابتعاث، صحيح؟
- إيه نعم.. طال عمرك.
- أجل أبشرك تم قبولك في تخصص الهندسة المدنية.
- الله يبشرك بالخير، وين ومتى وأي جامعة؟
- أبد أبد بتعرف كل شي، يا ليت تشرفنا باكر، بمان الله.

(وما كذبت خبر) ذهبت في اليوم التالي لمعرفة التفاصيل بينما كانت الأفكار تعصف في ذهني عصفاً (لندن، برلين، باريس، وللا وين؟). جلست في صالة الانتظار حتى جاء دوري للمقابلة:

- تفضل يا حمزة.
- السلام عليكم.

- وعليكم السلام والرحمة، شكلك ما نمت تبي تعرف وين قبلناك؟
- إيه والله تكفى.
- لا أبد أبشرك علومك طيبة ما شاء الله، قبلوك هندسة مدنية في السودان.
- السودان؟ هههههه قول غيرها (كانت ضحكة من الصدمة ليس إلا).
- لا والله السودان، وفي جامعة الخرطوم، تراها من أعرق الجامعات في الوطن العربي واحمد ربك قبلوك فيها ما يقبلون إلا كم طالب مبتعث كل أربع سنين.
- السودان، السودان.. توكلنا على الله.
- أجل، جهز نفسك وتذاكرك وحجزك، وسكنك بنوفره لك ما عليك، بندق عليك.
- مشكورين بمان الله.

السودان، ماذا أعرف عن السودان؟ تقريباً لا شيء يُذكر! لا أدري هل نحن المقصرون في جهلنا عن هذا القطر العربي الرائع أم هو تقصير الإعلام عن نقل المعلومات وتثقيفنا عن السودان، لا أدري! كان تقريبا كل ما أعرفه عن السودان أن (ربعنا) يذهبون للصيد (والمقناص) في السودان في بعض الأحيان. بدأت أجهز نفسي من كتب وأدوات وألبسة وغيرها مستعينين بذلك بذوي الخبرة في مجال الابتعاث وبعض الأخوة السودانيين لنسألهم عما قد نحتاجه في الخرطوم، والذين كان ردهم (يا زول ماشي الخرطوم عديل كدا؟! والله ماشالله ربنا يوفقك،

شفتنا ما تشيل معاك أي حاجه، يا زول نحنا لما نجي السعودية بنشيل حاجاتنا من الخرطوم) جزاهم ربي خيراً على تعاونهم، ولكن كحال أي شخص إذا سألته عن وطنه لا بد أن يزيد (البهارات أو بالسوداني الشمارات) فوق المعقول قليلاً.

- ارحب يا حمزة، بشر، عساك جاهز؟
- الله يبقيه، إيه بالله إني جاهز، وحجزت الطيران باكر بذن الله.
- على خير، بنرسلك أحد يستقبلك في مطار الخرطوم.
- الله يجزاكم الخير ما قصرتوا.
- أبد ما سوينا شي، بس الله الله شد حيلك، الله يوفقك.

كان كل شيء كالحلم، يمضي سريعاً، لم أكن أشعر بأي شيء فلا حماس ولا خوف ولا تقاعس، أعتقد أنني كنت لا أزال في حالة ما من الصدمة. كان أصعب ما في الأمر هو الوداع العائلي، وخصوصاً وداع والدتي الحبيبة في المطار وذلك لأنني (العود) فقد أثر ذلك فيها وفيني وفي العائلة كلها. لم أنسَ توصيات أمي الغالية (الله الله بصلاتك يا ولدي، وأنت ما ينخاف عليك مير انتبه من تصاحب، واياك والبنات يا ولدي ترا عندك محارم مثل مالناس عندها وخلك خير من يمثلنا) إلى آخر وصاياها حفظها الله التي طُبعت في ذاكرتي طول فترة تواجدي هناك. بعد هذه اللحظات والعناق والدموع، دقت ساعة الصفر، (حللونا يا جماعة الخير، دعواتكم في أمان الله) وتوجهت إلى باب الطائرة وما لبثنا قليلاً حتى أقلعنا متجهين إلى السودان.

-2-

رحلة إلى المجهول

ولكل جسم في النحول بلية.. وبلاء
جسمي من تفاوت همتي.

الشريف الرضي

لم تكن الأفلام المعروضة على شاشة مقعد الطائرة تواسيني، ولا الأطعمة المعروضة تكاد تلهيني عما يجول في خواطري. كان الحمل ثقيلاً، والأفكار عاصفة، والشعور بالمسؤولية الكبرى يكاد يخنق همتي. أحسست في زحمة تلك الأفكار بأنني مبعوث دبلوماسي يجب أن يمثل بلاده وعائلته وقبيلته خير تمثيل وأن يكون حذراً جداً في تعاملاته وأن لا تدنو له همة في تحصيل ما جاء به عوضاً عن أن يترك له بصمة واضحة وأثراً طيباً وراءه حين يعود سالماً غانماً من غربته وابتعاثه بمشيئة الله. كانت تلك الهموم والأفكار كفيلة بأن تبعدني عن كل ما حولي ومن حولي، فحتى الوقت يمر سريعاً دونما أشعر وما زلت لم أستوعب أنني على وشك أن أحط رحالي في قارة أخرى وفي بلد لم تطأه قدماي من قبل. في خضم هذه الأفكار وأمواجها المتلاطمة مداً وجزراً، تغشاني النعاس (ورحت بسابع نومة).

(تشير الساعة إلى الرابعة عصراً بالتوقيت المحلي لمدينة الخرطوم)، على صوت هذا الإعلان من كابتن الطائرة كان استيقاظي لأعلم حينها عن وصولنا مطار الخرطوم الدولي بحمد الله. حزمت أمتعتي ووقفت في طابور النزول من الطائرة لنتوجه إلى مطار الخرطوم. وصلت إلى صالة استلام الأمتعة بانتظار أمتعتي وحقائبي، لم تكن عيناي تدقق في أرجاء المكان ولا إلى ما حولي، الصدمة مرة أخرى؟! أعتقد ربما. بعد طول انتظار استلمت الأمتعة وهممت بالخروج من بوابة الصالة إلى اللامكان أو المجهول الذي ينتظرني. لوحة كتب عليها اسمي كانت ما لفت انتباهي في لحظة خروجي من بوابة الصالة. اتجهت إلى صاحبها فعرفني على الفور (سيماهم في وجوههم عرفني جديد) ورافقته إلى سيارته في مواقف المطار. لم نتبادل الكثير من الأحاديث، كان الكلام مقتضباً بطبيعة الحال. (أسي، أي الآن، حوصلك للداخلية) هكذا أخبرني رجل الاستقبال، الداخلية؟ هل كان يقصد وزارة الداخلية؟ ماذا سنفعل في وزارة الداخلية الآن؟ كانت هذه الأسئلة تدور في خلدي بدون أن أنبس ببنت شفة لأعرف لاحقاً أن الداخلية ما هي إلا السكن الجامعي للطلاب كما يطلق عليها الأخوة في السودان.

وصلت إلى الداخلية في منطقة السجانة، ومن المفارقة أن الطريق المؤدي إلى هذه المنطقة هو شارع الحرية! صعدت أدراج المبنى شبه المظلم قبيل غروب الشمس، وجلست في صالة الاستقبال. كان في الصالة أثاث قديم بعض الشيء وتلفاز صغير ينقل الأخبار. هنا وفي هذه اللحظة بدأت أشعر باختلاف المكان والزمان عما كنت فيه. طلبوا مني الانتظار حتى يرتبوا لي أين سأستقر وفي أي غرفة، أعتقد بأنني

فاجأتهم على حين غرة فقد وصلت قبل الطلبة الجدد بأسبوعين. في هذه الأثناء جالسني أحد الأخوة المبتعثين هناك كذلك، أعتقد أنه كان في سنته الأخيرة. تجاذبنا الأحاديث بشكل مختصر أيضاً عن الجو وكيف وجدت السودان وما إلى ذلك. ثم قدم لي مشروبا لم أميزه وقتها فكان لونه يميل إلى البني، لا بد أنه تمر هندي؟! سألته، فضحك وقال (اشرب وما عليك)، لأعرف بعدها أنه ماء النيل من النهر إلى الكوب أو (الكوز) كما يقول الأخوة السودانيون. كان كطعم الماء وإن لم يكن لونه كذلك، وكان هذا الكوز بداية تعلقي بالقارة الأفريقية، فكما روى لنا الأخوة السودانيون أن من يشرب من ماء النيل فلا بد له من عودة للسودان إن غادرها يوماً ما. حسناً أعتقد أن هذا الكلام فيه من الصحة ما لا بأس به كما ستعرفون لاحقاً.

- غرفتك جاهزة تفضل خذ راحتك والصباح رباح.
- الله لا يهينك، ما قصرت، يعطيك العافية.

كان وصولي عن بقية الطلاب الجدد نقطة إضافية تحسب في صالحي حيث أنها ستتيح لي التعرف على المنطقة والقوانين والمصروفات وأسعار الأطعمة والمشروبات. داخليتنا في السجانة كانت عبارة عن مبنى بسيط مكون من أربعة أدوار، يحوي كل دور غرفاً عدة. في الدور الأول كانت صالة الاستقبال، ومكتبة صغيرة ومعمل للحاسب الآلي. منطقة السجانة هي منطقة صناعية فكانت تحيط بنا من كل صوب أسياخ الحديد للبناء وأكياس الإسمنت والعمالة التي تجوب الأسواق. كطلاب ذوي خلفية شرقية كان لا بد أن يتم عزلهم بعيداً عن مناطق العوائل أو هكذا ظن من اختار مكان الداخلية. على كل حال،

كان رأيه يحتمل الصواب في معظم الحالات. كعادة المناطق الصناعية في أي مكان، تبدأ الحياة في الصباح الباكر حيث تسمع أصوات طرق الحديد والمفاصلة على الأسعار والاتفاق مع العمال وأصوات أبواق الشاحنات (أو اللواري بالسودان) وصوت بائع الحليب الطازج (أو سيد اللبن) الذي يتجول على حماره بين الأزقة والحارات (أو الحلل) كما هو الحال مع بائعي الخضار والفواكه والمكسرات (التسالي). كان هناك الكثير من الأشياء لاستكشافها والخوض في غمارها، فنحن في دولة جديدة علينا وثقافة ليست بمعهودة لدينا وإن كنا عرفنا بعض الأخوة السودانيين في أوطاننا، لكن ليس من رأى كمن سمع. بعد هذا النشاط واليوم الحافل كان لا بد أن تنام هذه المنطقة وتهدأ مبكراً في أوائل الغروب، ولا يبقى سوى بعض البقالات والمطاعم البسيطة لفترة العشاء. لم تكن الأنوار تملأ طرق هذه المنطقة، كانت الحياة بسيطة نوعاً ما، ومريحة!

على الرغم من هذه النشاطات من حولي وتعددها، إلا أنها ليست إلا بالجزء اليسير من جوانب ونواحي المعيشة في السودان وحياتي الجامعية فيها. كوني الطالب الجديد بين مجموعة من الطلبة الأقدم أو الأكبر (السناير كما يُطلق عليهم في السودان) لم تتح لي فرصة الاستكشاف وسبر أغوار السودان وجوانب المعيشة فيه. كان السناير يصرون على أن أسترخي وآخذ راحتي (ولاحق عالشقا) كما يقولون. ولكن كان هاجسي الأكبر هو تعلم هذه الأشياء قبل أن تبدأ الدراسة الجامعية، لكيلا أتوه في طرقات الخرطوم أو أن أضيع مكان الداخلية أو الجامعة، كيف سأركب المواصلات؟ كيف سأوقفها؟ من أين؟

لم أكن قد اعتدت على المواصلات العامة قبل ذلك، فلا يكاد يخلو بيت في أوطاننا من عدة سيارات متاحة لتذهب بها حيث شئت، ولكن حياة الطلبة ومجاراة الناس كانتا واجباً ممتعاً لا بد منه. كنت خلال هذه الأيام قليل الخروج من الداخلية، لعدم معرفتي الكاملة في أنحاء المنطقة ولم يكن هناك ما يشغلني بالخارج. أصبحت أزداد تحمساً وشوقاً لبداية الدراسة الجامعية، وفتح صفحة جديدة في مراحل الحياة لاستكشاف المجتمع بصورة أشمل وشكل أوضح وأنصع. كما يقول السناير، إن هذا الحماس والتشوق لمن الطبيعي جداً أن يكون عند (البرلوم) وهي كلمة تطلق على طلاب السنة الأولى (البرالمة) في الجامعة، و(البرلمة) هي مجموعة المقالب التي يطبقها السناير على (البرالمة). مصطلحات توحي بمعارك حتمية في الجامعات بين السناير والبرالمة، الله يستر!

-3-

برلوم

ففز بعلم تعش حياً به أبداً.. الناس موتى وأهل العلم أحياء.

الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه

- السوق العربي؟
- آي.. راكب؟
- آي، أقيف (توقف).

كان هذا الحوار الذي دار بين أحد السناير الذي تطوع لمرافقتي إلى الجامعة لأول مرة وبين كنترول الباص أو ما يُعرف بالسودان (كمساري) وهو الشخص الذي يتولى مهمة نزول الركاب وصعودهم، والمناداة على طريق الباص ذهاباً وإياباً، وجمع نقود التذاكر من الركاب. ركبنا الحافلة (البص) إلى السوق العربي، هذا السوق هو أحد المعالم الشعبية المميزة جداً في السودان، إن لم تزر هذا السوق فلم ترَ وجه السودان بعد. إنه مكان توافد الحافلات وانطلاقها إلى مختلف مناطق الخرطوم، وهو مكان يجتمع فيه الباعة المتجولون والمفترشون بشتى السلع وغرائب البضائع، وكذلك المطاعم والكفتيريات المنتشرة على

جوانبه. ولا بد أن يشد انتباهك أيضاً باعة المياه المتجولون، يتعلقون بـ(الجردل) المملوء بماء النيل والثلج ويتجولون بين الحافلات، لتطفئ تلك المياه لهيب الشمس الحارقة والزحمة الخانقة، فكان زوار هذا السوق يقدّرون بالملايين يومياً. وكما هو الحال مع باعة المياه ستجد باعة العصائر يقفون بجرادلهم بين الباصات، وعليّ أن أذكر أن السودان غني جداً بفاكهته وعصائره، فخذ مثلاً العرديب ويشبه مذاقه مذاق التمر الهندي، والصمغ العربي، والقونقليز أو التبلدي، والشعير، والكركديه، والقضيم، والحلو مر أو اللابريه، والشربوت، والليمون والمانجا والبرتقال وما إلى ذلك. وصلنا إلى مواقف الحافلات، لتأخذني الدهشة من عددها واختلاف أنواعها فهناك الحافلة الكبيرة، والهايس والجريس والأمجاد والتاكسي، ولكل منها سعر ومميزات. كانت الحافلة هي الخيار الأمثل لعامة الشعب والطلبة خصوصاً، خاصة أن في هذه الحافلات مقاعد مخصصة للطلبة يكون سعر تذاكرها مخفضاً عن بقية المقاعد، ولا بد أن تمر بك مواقف الجدل بين الطلاب والكماسرة حول سعر التذكرة المخفض ومقاعد الطلبة بشكل طريف نوعاً ما.

وهنالك أكثر من طريق يقودنا نحو الجامعة كما عرفت من أحد السناير الذي رافقني إلى السوق العربي، ونظراً لأنه لم يكن يدرس في جامعتي نفسها فنصحني بتجربة أكثر من طريق لاختيار الأنسب من حيث كثرة توافر حافلات هذا الطريق وسرعة الوصول إلى الجامعة من خلاله. استقلينا حافلة الشعبية بحري – الشعبية أحد أحياء منطقة بحري، فالخرطوم العاصمة تقسم إلى ثلاث مناطق حول

النيلين الأزرق والأبيض، وهي الخرطوم، بحري، وأم درمان - انطلقنا بالحافلة وقد دفع صديقي ثمن التذكرة عني كما جرت العادة في السودان، فالسناير يدفعون للبرالمة، والشباب يدفعون للفتيات، كل بحسب استطاعته وظرفه، ولكن إن لم تكن الظروف تسمح لأحدهم بالدفع فإنه ليفضل عدم الركوب في الحافلة نفسها منعاً للإحراج، يا لكرمهم الرائع والبسيط غير المتكلف. لم يأخذ الطريق أكثر من عشر دقائق حتى نزلنا في طريق مقابل للجامعة، وأكملنا الطريق مشياً في ممر ضيق بين داخليات جامعة الخرطوم حتى وصلنا إلى بوابة كلية الهندسة - في جامعة الخرطوم أو ما يعرف بـ (سنتر الخرطوم). تنتشر الكلمات الإنجليزية المعربة بكثرة في الثقافة السودانية وربما يُعزى هذا إلى فترة الاستعمار الإنجليزي للسودان سابقاً. فسنتر للمركز والوسط، ولكاشر للمحاضرات، وشيتات لأوراق المحاضرات، وتيستات للاختبارات، وكندشة للتكييف، ودبرسة للاكتئاب، وركلسة للاستراحة، وجكس للفتيات العازبات، ويجكس أي يغازل ويجالس (يخلط) الفتيات، وهلم جراً.

بوابة كلية الهندسة لجامعة الخرطوم، صرح شامخ يعانق عنان السماء. عندما تقترب من البوابة تشعر بهالة من الطاقة تحيط بالمكان، النشاط يعج بالأرجاء، الحافلات تتوقف باستمرار أمام البوابة لنزول الطلبة وصعودهم، طلاب وطالبات يدخلون ويخرجون مراراً وتكراراً متوشحين بمساطر الهندسة والحقائب والكتب والشيتات، وكذلك طلاب الخلط والتجكيس الذين قد يكونون من خارج الجامعة أصلاً. (يا زول، بطاقتك وين؟) هكذا سألني الحارس الجامعي الذي يقف

على بوابة الكلية، فشرحنا له أننا هنا للتسجيل فأنا طالب جديد بالسنة الأولى وهذا يومي الأول في الجامعة، فوافق مشكوراً على إدخالنا. دخلنا الجامعة وتجولنا بالأقسام حتى عرفت قسم الهندسة المدنية، ومكتب المسجل والعمادة والكفتيريا والمكتبة. ارتشفنا كوبا من القهوة السودانية المميزة من كافتيريا الجامعة تدعى هذه القهوة بالجَبَنه الحبشية نسبة لأرض الحبشة (إثيوبيا) وتعلمون أهمية القهوة والبن في ثقافتنا وموروثنا وأعتقد أن الشيء نفسه في السودان كما يتضح جلياً في القصائد والأدب والفن السوداني الأصيل، ولعلكم تسمعون مقطعاً من أغنية سودانية يردد (جبنة حلوة حبشية) بالفعل إنها قهوة لذيذة لها طقوسها وطريقتها الخاصة التي سنأتي على ذكرها لاحقاً. بعد أن انتهينا من شرب القهوة لم نلبث أن خرجنا من الجامعة لأن التسجيل كما قد علمنا سيبدأ في الأسبوع المقبل.

أتى اليوم الموعود، ووصلت إلى الجامعة مبكراً لأبدأ في إجراءات التسجيل التي لا علم لي أين تبدأ ومتى تنتهي. من مكتب المسجل إلى سكرتارية العميد إلى رئاسة قسم الكلية، بين هذا وذاك أتنقل كالسعادين تلك التي كانت تقفز من شجرة مانجا إلى أخرى في الجامعة علني أعرف كيف أبدأ تسجيلي. ربما قلة عدد الطلاب الوافدين في جامعة الخرطوم كانت المشكلة في عدم معرفة طاقم الكلية في حيثيات التسجيل وكيفيته. بدأت أعرف الخطوات ومن أين يجب أن أبدأ ولكن واجهت مشكلة معرفة الأماكن، قسم الشؤون العلمية، إدارة الجامعة، الكشف الطبي؟ أين تلك الأماكن؟! لا أدري! وربما زاد (الطين بلة) أن كثيراً من الأخوة السودانيين من باب حب

المساعدة وعدم إحراج السائل إذا سألهم عن مكان ما فإنهم يدلونه على أي مكان يشبهه أو حسب ما تركن إليه نفوسهم حرجاً من رده أو إجابته بما لا يفيده، لم أكن أعلم عن هذه العادة ولكن بعد أن عرفتها كنت متيقنا أنهم ما فعلوها إلا من حسن نية ورغبة في المساعدة، وليتهم عرفوا أنها كانت عكس ذلك تماماً.

ومن الطرافة أن بعض الشباب السناير في الداخلية أوصوني بدفع رسوم الجكس لكيلا أقع بالمتاعب عند التخرج وعلي أخذ هذا الموضوع بجدية، وقتها لم أكن أعرف معنى جكس، فما كان مني إلا أن ذهبت إلى المسجل وكانت امرأة كبيرة فاضلة، فقلت لها أنني أريد دفع رسوم الجكس فما كان منها إلا أن ضحكت بملء فيها ولكن أعتقد أنها عرفت واقع حالي فقالت (رسوم جكس شنو يا ولدي؟ اللي قال ليك كدا منو؟ ديل أكيد برلموك)، لا تسأل عن شعوري وقتها وألوان وجهي حين عرفت معنى كلمة جكس، حسناً كانت هذه برلمة واحدة من البرلمات التي تعرضت لها إن لم تكن الوحيدة. تابعت إجراءات التسجيل وذقت الأمرّين في معرفة الأماكن وضاقت عليَ الأرض بما رحُبت، كنت أذهب رواحاً وغدواً في الطريق نفسه مشياً على الأقدام تحت لهيب الشمس الحارقة علني أجد ضالتي. أسأل شخصاً عن الكشف الطبي فيصف لي طريقاً إلى الشرق أكاد أن أصل حيث وصف وأسأل آخر فيعيدني غرباً وهكذا دواليك. ضاقت بي نفسي فعلاً وهممت بالعودة إلى كلية الهندسة عود اليائس بخفي حنين.

- السلام عليكم، ارحب يا حمزة وشلونك؟
- وعليكم السلام هلا يبا (أبوي) الله يبقيك بخير يا مال الخير.

- بشرنا عنك وشلونك مع السودان والدراسة والجامعة، ناقصك شي يبا؟
- لا والله يبا ما تقصر (بصوت تخنقه العبرة ويهاجمه الإحباط).
- (أحس أبي بذلك) ما عليك يبوي واصبر وأنا أبوك والله لولا الدراسة وترفع راسنا ما وديناك.
- أبشر يبا ما غير دعواتك لنا، بمان الله.
- الله يوفقك يا ولدي.

كمجتمع شرقي ترعرعنا فيه، نادراً ما كانت المشاعر بين الأب وابنه متبادلة وواضحة، ولكن لكل مقام مقال. كنت في حالة من اليأس والحنين للوطن بعد هذه المكالمة لدرجة لا توصف. لكن فرجت وكنت أظنها لا تفرج، استوقفني أحد الأشخاص في طريقي، ربما قرأ في وجهي ملامح اليأس وعلامات المشقة، وبمحض الصدفة كان طالباً وافداً أيضاً وفي السنوات الأخيرة في دراسته بجامعة الخرطوم، رضوان من اليمن السعيد، ما زلت أذكر اسمه للتو واللحظة، جزاه ربي خيراً أينما حل. (شكلهم توهوا بك؟!) كان سؤاله الذي يعرف جوابه من قبل! فجاوبته إيجاباً ورد عليّ (ما عليك باكر تتعود). وما كان منه إلا أن رافقني إلى كل أماكن التسجيل حتى أتممته بعد جهد جهيد ولله الحمد.

ابتدأت سنتي الدراسية الأولى، أخيراً. كانت من جملة النصائح التي استقيناها قبل مجيئنا إلى السودان من بعض الأخوة السودانيين هو أن لا أرتدي الثياب التقليدية الرسمية وهي الثوب والشماغ والعقال لكيلا أشذ عن العامة من الناس وأبعد الشبهات وأنخرط مع جملة الناس بشكل أسرع. لم تكن نصيحة نصوحاً أبداً سيتضح جلياً لاحقاً،

ولكني تقيدت بها، فلا أذهب إلى الجامعة إلا ببنطال وقميص كما يلبس عامة الناس. كانت المحاضرات أو اللكاشر في بداياتها، للتعريف بالمنهج وبشكل مبسط ومختصر كبداية فقط. لمدة أسبوع كان الوضع على ما هو عليه، وما كنت أفقه كثيراً مما يقال في المحاضرات فقد كانت إما باللغة الإنجليزية التي لم أكن بعد قد اضطلعت بها، وإما باللهجة السودانية التي لم أعتد عليها وأتمرس بها بعد.

لم تكن تلك المعضلة الكبرى، ولكن المشكلة تكمن أنه طوال أيام هذا الأسبوع لم أتعرف إلى شخص واحد من الدفعة. كانت دفعتنا كبيرة تتخطى المئتين تقريباً من شباب وشابات بمختلف مجالات الهندسة ففي السنة الأولى نلتقي تقريبا بكل المواد حتى نبدأ بالانفصال كل حسب تخصصه، ولكني لم أتعرف إلى شخص منهم على الإطلاق. ربما كان التقصير مني، ولكن كغريب وجديد على هذه الثقافة كنت أنتظر المبادرة من الآخرين، ولم يحصل ما أردت. كنت أدخل المحاضرة وحيداً، وأغادرها وحيداً، وأفطر وحيداً وهكذا دواليك. أخذتني الحيرة في أمري، فلم يكن هذا متوقعاً حسب معلوماتي عن الأخوة السودانيين، فقد قيل لي أنهم شعب مضياف وسمح المحيا ومضياف كريم، وهم حقاً كذلك كما عرفت لاحقاً.

قررت في صبيحة أحد الأيام أن أرتدي الزي التقليدي الثوب والشماغ (واللي يصير يصير). بداية من ركوب الحافلة إلى المشي في السوق العربي إلى أن وصلت إلى الجامعة، كانت النظرات ترمقني غدوة ورواحاً وكان هذا بديهياً لأنه ليس مشهداً معتاداً في شوارع الخرطوم، ولكن كنت قد قررت ولم أندم على ذلك. ما زلت أذكر

ما حدث حين دخلت القاعة وكنت قد تأخرت قليلاً على المحاضرة، كانت مقاعد الفتيات تقع مباشرة بجانب بوابة القاعة، وما أن دخلت القاعة حتى أخذت الفتيات بالضحك بعلو أصواتهن استغراباً منهن أو ظناً أنني أخطأت القاعة، حاولت ألا ألقي بالاً لهذا ولكن كنت قد أثرت انتباه كل من في القاعة فجلست خلف مقاعد الفتيات بكل هدوء. مضت المحاضرة بشكل سريع وأنا أسبح في بحر من الأفكار آملا أن أخرج من إحراج هذا الموقف بسلام.

ما إن خرجت من القاعة بعد انتهاء المحاضرة، حتى تجمع حولي الشباب للسلام والتعارف بشكل أثار ذهولي واستغرابي، ولكن إن عرف السبب بطل العجب. صارحتهم بما كان يدور في خلدي منذ اسبوع فاعتذروا لي أشد اعتذار لأنهم اعتقدوا أنني قبطي في بداية الأمر (الأقباط طائفة مسيحية يعيشون في السودان، ونادراً ما يختلطون مع غيرهم) وظنوا بذلك أنني لن أتقبل التعرف إليهم، ولكن الآن أنت مننا وفينا (حبابك عشرة يا زول، أي مرحبا بك عشر مرات). كنت سعيداً ذلك اليوم على الرغم من الإحراج الكبير الذي مررت به، وإن كنت قد تعلمت شيئاً مهماً فهو عليك أن تكون نفسك بلا تصنع وتكلف. تقبل نفسك وسيتقبلك الناس بما أنت عليه. استمررت فترة طويلة ألبس زيي الرسمي لا كبراً وخيلاء ولكن تمثيلاً لثقافتي وتبادلها مع رفاقي في الدفعة الذين كانوا من خيرة الأخوان طوال سنوات الدراسة.

من الناحية الاقتصادية، كنا نتقاضى ما يشبه الراتب الشهري ليغطي مصروفاتنا من طعام وشراب ومتعلقات أخرى. ولكني، كطالب في السنة الأولى، فشلت في إدارة مصروفاتي بكل صراحة. كنت لا

ألقي بالاً للمصروفات، أعيش تماماً حيث تعودت في وطني من حيث إقامة الولائم ودعوة الضيوف من الطلبة الوافدين في الداخلية وما إلى ذلك. ذات مرة قال لي أحد الطلبة الوافدين، أنه يجب علي أن لا أكون حنبلياً في التمسك بعاداتي وتقاليدي، بل يجب أن أخلع رداء العادات وأعلقه في مطار الخرطوم، ولا أرتديه إلا حين أقفل راجعاً إلى وطني في الإجازات أو بعد التخرج. قد يكون رأي هذا الشخص يحتمل الصواب، ولكن نصيحته كانت مبتورة الأطراف، إن خلعت رداء تقاليدك وعاداتك، يجب أن ترتدي رداء آخر وهو عادات وتقاليد البلد الذي تقيم فيه بالحد الذي لا يتعارض مع ثوابتك ومبادئك، ولكن ما قصده هذا الناصح الأمين هو الانسلاخ من كل العادات والتقاليد والعيش (على عماها)، ولعل مثل هؤلاء الأشخاص من جعلني أنتقل من الداخلية إلى سكن خاص في منطقة أخرى، فأنا مع التمسك بعاداتك وتقاليدك ونشرها من حولك بالإضافة لاكتساب العادات الحميدة للبلد الذي تدرس فيه ومعرفة ثقافته وخباياه. مرّ عليّ طلاب مبتعثون، لم يعرفوا من السودان غير محاضراتهم في الجامعة، ولا أعتقد أن هذا غرض الابتعاث، فالابتعاث يقع ضمن إطار التبادل الثقافي للطلاب وهو جوهره، وإلا فلا فرق في أن تدرس في وطنك أو خارجه.

كانت تمر عليّ بعض الأيام لا أجد ما أسد فيها رمقي، ولم أكن قد تعرفت إلى صديق إلى ذلك الحد الذي يمكنني فيه أن أقترض منه مالاً. أذكر كم من المرات قطعت فيها عشرات الكيلومترات ماشياً على أقدامي تحت لهيب الشمس الحارقة لأنني لا أجد قيمة تذكرة

الحافلة التي كانت زهيدة أيامها، فقد كان اقتصاد السودان في 2007 وقبل انفصال الجنوب بخير نوعاً ما. كنت متأكدا لو أبلغت الكمساري بعدم حملي للنقود لما طلب مني شيئاً على توصيلي، ولكن أبت الكرامة حفظاً لماء الوجه أن أفعل ذلك، كما أنني لم أطلب من عائلتي شيئاً لكيلا أبين مدى فشلي في إدارة اقتصادي ومواردي. كانت هذه المواقف هي التي صقلت مهاراتي الاقتصادية، وجعلتني أكثر مهارة في السنوات الدراسية القادمة وأكثر كفاءة لإدارة مصروفاتي. كنت في السنوات الأولى غالباً ما أقوم بتأجير السيارات لأذهب بها إلى الجامعة وأقضي بها أشغالي، ولكن كانت عوضاً عن مصروفها تشكل حاجزاً اجتماعياً بيني وبين الناس، ولعل هذا من الدروس المهمة التي تعلمتها وهي ألاَ بأس أن تتميز بين الناس، ولكن لا تتمايز وتشذ عن عوام القواعد.

-4-

صدام الحضارات

صراع الأفكار هو صوت الحرية.

ليدي بيرد جونسون

كنت قد بدأت التأقلم نوعاً ما مع المجتمع الجديد في الجامعة، وبدأت بتكوين بعض الصداقات وكثير من المعارف. كما قد بدأت بتعلم اللهجة السودانية والتعرف إليها أكثر فأكثر. ولكن كان لا بد أن أتوقع بعض الصدام والصراع بين الحضارات والثقافات لاختلافها، وقد كان. كنت في أحد الأيام أتناول فطوري بعد محاضرة على أحد البنشات (مقاعد إسمنتية) في اللبخة وهي منطقة كثيفة الأشجار بجوار كفتيريا الجامعة. كنت أجلس وحدي وأتناول شطيرتي، وإذ بي بثلاث فتيات يقفن أمامي وألقين التحية:

- السلام عليكم، كيف تمام؟
- وعليكم السلام ورحمة الله، بخير الحمد لله.
- نحنا زميلاتك وحابين نتعرف عليك.
- مرحبا ومسهلا، انتوا معانا بالدفعة؟
- طبعاً، وللا ما كان جينا سلمنا عليك.

- المعذرة، أنا لسا جديد.
- أنا فلانة، ودي فلانة وفلانة.
- أهلاً وسهلاً، أنا حمزة.

(مدت إحداهن يدها لتصافحني).

- المعذرة، بس أنا ما بصافح (وضممت يدي إلى صدري).
- أها، دي أولها؟! آسفين، شكراً، مع السلامة.

كان موقفاً مربكاً جداً لا أحسد عليه، فلم نعتد على التحدث مع الفتيات إلا من وراء حجاب وبشكل مقتضب جداً، ناهيك عن زميلات دفعة أتين ليتجاذبن أطراف الحديث (أو كما يُقال بالسودان يتونسوا أو يقوموا بالونسة) ويصافحنني يداً ليد! الأمر لم يعدُ أنني تصرفت على سجيتي بلا تكلف. كان الأمر لا إدراكياً البتة. لم يكن خطأهن، وأتمنى أنه لم يكن خطأي، ربما فقط هو صدام الحضارات واختلاف الثقافات. لم أعرف أنني للتو قد فتحت أبواب الجحيم على نفسي دونما أقصد، ربما أخطأت في عدم توضيح الأمر بهذا المنظور وتبيين وجهة نظري، ولكن ما قد فات فات ولن ينفع الندم.

تكرر الموقف معي مرات عديدة، حينما كنت أقف مع مجموعة من الشباب نتبادل الأحاديث أو نتونس وكان يمر بنا بعض الفتيات من الدفعة ليسلموا على أصدقائهن، ومن باب المجاملة والذوق كنّ يسلمن على كل من في المجموعة، فإذا وصل الدور إلي ومدت إحداهن يدها كنت أضمم يدي إلى أصدري وأعتذر بأنني لا أصافح، ولكني كنت دوماً أتفاجأ بامتعاض الفتيات ومغادرتهن على الفور. أعتقد أن مثل هذه التصرفات التي بدرت مني قد سرت وانتشرت في

الدفعة وبين الفتيات خصوصاً انتشار النار في الهشيم. كان الأمر كفيلاً بزرع الكراهية في صدور الفتيات، أو كما أظن. كنت أتمنى أن تتفهم بعض الفتيات تصرفي وتتيقّن بأني لا أكن لهن إلا كل احترام وتقدير. عرفت لاحقاً أن هذا الأمر مهين جداً للفتيات، وهو عدم مصافحتهن وخصوصاً أمام عامة الناس، خاصة كوني الطالب الوافد الوحيد في الدفعة فقد غلب على ظنهن أنني رفضت مصافحتهن استعلاءً وتكبراً، تمنيت وتمنيت وتمنيت أن أشرح وأبرر وجهة نظري ولكن قد حدث ما حدث. لا أنكر أن هذه التصرفات خلقت عداوات وربما وجدت بعض الفتيات لها تبريراً لديهن، ولكنها استمرت لسنوات وقد استفحل أمرها في آخر سنواتي بالجامعة لتصل إلى العامة بل والصراخ ورفع الصوت أمام مجموعة من الطلبة. لست برجل دين، ولكن ألم يكن ذنب مصافحتي إياهن أهون من فتح باب شر كهذا؟!

كانت مصافحة النساء في الثقافة السودانية لا تدل على شيء إلا تصافي النفوس، وحسن النية وأريحية التعامل، كأنها رسالة بأننا أهل وكما يقولون (الحالة واحدة). في آخر سنواتنا الجامعية، صرحت بعض الفتيات لبعض شبابنا بالدفعة بأنهن يشعرن أنني أنتقص من قيمتهن وأعاملهن بدونية، ليتهن عرفن أن ذلك كله كان مجرد صدام حضارات فقط. حاولت الإصلاح ما استطعت، في إحدى إجازاتي استشرت عائلتي في ذلك، فأوصوني بالهدايا "تهادوا تحابوا"، فما كان مني إلا أن أهديت فتيات الدفعة جميعهن بعض الهدايا الرمزية كتذكار من وطني. آمل أن يكون ذلك التصرف قد حسّن انطباعهن السابق عني. خسرت كثيراً من الأشياء بسبب سوء الظن في حياتي وعانيت

المرارة من تحمل ما لم أقصد مراراً وتكراراً، وما انفك الأمر يتكرر مرة بعد مرة وعاماً تلو عام.

(شكله معقد، أنصار سنة، سلفي، كيسه فاضي) وما إلى ذلك من الاتهامات التي كنت أسمعها جهاراً نهاراً من بعض الفتيات، البعض وليس الكل فهناك من الفتيات من تخرجت ولم أسمع منهن إلا كل خير، الأمر الذي بدا مزعجاً حقاً في مجتمع كبير ومتنوع كالجامعة. في إحدى المرات دفعني هذا الأمر للتعرف بشكل عابر إلى إحدى الفتيات من خارج دفعتي وحرصت على أن ترى بقية الفتيات في الدفعة ذلك لكي أدفع عني هذه التهم وأكشف بطلانها. لم ألبث أن قطعت معرفتي السريعة والسطحية والعابرة بتلك الفتاة التي لا ذنب لها سوى أنها كانت ضحية صراع حضارات. لقد أخطأت، أعترف بذلك، ولكنني كنت في سنتي الأولى أحاول التأقلم مع ثقافة جديدة كلية لم أعتدها. عرفت كذلك إحدى الفتيات التي كانت تقيم في المملكة قبل مجيئها للدراسة، كانت في سنتها الأخيرة في دراسة الهندسة المدنية ووجدت فيها متنفساً لأشرح لها معظم ما يمر بيني وبين فتيات الدفعة. كانت أختاً فاضلة والأهم من ذلك أنها كانت تحب الشعر النبطي أو الشعبي فكان ذلك ترويحاً بالنسبة إليَ بعد فترة عصيبة من التوتر، ولكن لا حزن يدوم ولا سرور، فما لبثت أن تخرجت هذه الأخت وعادت إلى حيث تقيم. (حجر) كان هذا الوصف يطلق على من لا يخالط ويجالس النساء، أعتقد أنهم إنما شبهوه لذلك لقسوته وجفائه كالصخر والأحجار. حسناً، ربما كنت حجراً، وأعتقد أنها أخف وطأة عن باقي التّهم.

كانت تجلس غالباً في اللبخة، فتاة من دفعتنا تدرس الهندسة الكيميائية، مع مجموعة من صديقاتها. كنت أرقبها من بعيد ولا أبرح مكاني حتى تغادر هي المكان. لم أكن أعرف اسمها ولكن ذات مرة عرفت من أصدقائي أنها تلقب بالصقر لأن عينيها تفترسان كل ناظر كطير جارح. في الحقيقة كانت عيناها ساحرتين وآسرتين، تقتلان ولا تحييان قتلاهما، ولشخصيتها هالة وسحر لا ينفك يربط روحي إلى أعماقها. كنت وما زلت من رواد مدرسة الحب العذري العفيف، "نظرة فابتسامة فسلام.. فكلام فموعد فلقاء". أعتقد أن عقارب ساعتي توقفت عند النظرة وحسب. منذ السنة الأولى تملكت حشاشة قلبي هذه الفاتنة السمراء، ولكن هيهات هيهات، فأنّى لمثلي فرصة معها؟ أغلب صديقاتها كنت قد رددتهن عن المصافحة، ومثلي غريب لا يُعرف عنه شيء وكما يقولون في السودان (المابعرفك بجهلك). كنت أريدها حلالاً زلالاً ولكن كيف! كل هذا كان في السنة الأولى ولم أصارح أحداً بتلك الرغبة لكوني ضيفاً يجب أن يلتزم حدود الأدب مع مضيفيه، وخشية من أن أحمل على محمل خاطئ مرة أخرى. لم تنته قصة الفاتنة السمراء، وأعتقد أنها لن تنتهي، لكن سنأتي على ذكرها وتتمتها الغامضة لاحقاً.

كان صراع الحضارات قائماً من ناحية الشباب، ولكنه كان أقل حدة وأخف وطأة. كان التفاهم مع الشباب أسهل وأسرع، ولا أدري إن كان الشباب متفهمين أكثر للاختلاف، أم أنني لم أجد حاجزاً بيني وبين الشباب لأشرح وجهات نظري في أي وقت! أذكر أنني في محاضرات الكالكولس (أو الحسبان وهو من مواد الرياضيات الهندسية) كنت

أتجرع الحنظل وأذوق الويلات. كان دكتور المادة كبيراً في السن، يكتب ويشرح بالإنجليزية وأحياناً يتكلم باللهجة السودانية. كنت لم أبرع بعد فيهما معاً، وكنت أراقب الطلاب الذين يرفعون أيديهم ليجاوبوا عن سؤال ما طرحه الدكتور بكل ذهول! كيف لا يُعقل أن أعرف الإجابة؟! هنا أحسست بآمالي تتبخر، وأحسست بأنني سأعود محبطاً خالي الوفاض منكساً رأس عائلتي وقبيلتي ووطني. أتذكر المرات التي تواريت فيها عن الأنظار بعد انتهاء المحاضرة لأذرف عبرات الحرقة والحسرة، فلا أريد أن أخيب ظن عائلتي وأعود إليهم بخفي حنين. كما كنت قد ذكرت، كان لي معارف عدة وأصدقاء، لكن لم تتوطد علاقتنا إلا في السنوات التالية. في السنة الأولى، كان كل طالب همه نفسي، نفسي. فهذا مهتم بتحسين درجاته وتجميعها ليكون من الأوائل على دفعته، وذاك كان همه أن يظهر بمظهر الشاطر حسن ليفوز باستحسان الفتيات وأن يأتينه لشرح مادة ما أو حل معضلة. كنت حينها لا أريد سوى الكفاف و(بياض الوجه).

أذكر مرة كنت في المكتبة أصور محاضرة قد فاتتني وبالصدفة قابلت أحد طلاب دفعتنا في المكتبة نفسها كان يصور نسخة من أسئلة اختبارات قديمة للحسبان، كنت أعرف هذا الطالب معرفة بسيطة، فقلت لصاحب المكتبة أن أجعل التصوير نسختين عوضاً عن نسخة واحدة، ظناً مني أن البساط أحمدي بيني وبين هذا الزميل، ولكنني تفاجأت بمحاولة اعتذاره وتملصه من إعطائي نسخة بحجة أن من أعطاه هذه الأوراق استحلفه أن لا يراها غيره! لم أكلفه عناء الاعتذار وقلت له أنا آسف فعلاً بإمكانك الاحتفاظ بورقك والله يوفقك. أعتقد

أنه استدرك خطأه بعدها ولحق بي ليعتذر ويعرض عليَ أن أصور الأوراق ولكن لا أريها أحداً، فاعتذرت وقلت له إن الأمر عادي وإنني فعلاً لا أريد الأوراق. ربما أخطأت أنا أيضاً بطلب نسخة من الأوراق، ولكن كطلاب سنة أولى كان عندنا بعض الأنانية. استمرت علاقتي بهذا الزميل طيلة السنوات التالية ولكن كانت في حدود السلام فقط، لم يكن بيني وبينه ضغينة، ولكنه حُوِّل إلى قسم الهندسة الميكانيكية عوضاً عن المدنية لنفترق في السنوات التالية ولا نلتقي إلا بالصدف. ولكن كان لوقع هذا التصرف من هذا الزميل ما يستحق أن يُشكر عليه، فقد جعلني أزيد من تصميمي على النجاح بهذه المادة مهما كلف الأمر.

عرفت أن اختلاف منهجنا في الثانوية عن مناهج السودان كان هو السبب في تقدم طلاب الدفعة عليّ بخطوات في فهم الحسبان واستيعابه في السنة الأولى. أخبرني مرة أحد الزملاء أن الحسبان لا يفرق عن مادة الرياضيات عندهم في الثانوي إلا فرقاً يسيراً. حسناً، قررت أن أشتري كتب الرياضيات السودانية للصف الثالث الثانوي وبالفعل بعد السؤال عنها، وصلت إلى سوق الجامع الكبير في السوق العربي ووجدت الباعة يفترشون أنواع الكتب وأشكالها، فابتعت ما أريد وعدت إلى البيت. كانت الاختبارات قد اقتربت ولم أكن قد استوعبت الحسبان كله. عكفت على قراءة كتب الرياضيات الثانوية خطوة بخطوة حتى بدأت بتوسيع مداركي، وهكذا حتى قاربت على الانتهاء ولم يبقَ إلا يوم واحد يفصلني عن اختبار الحسبان النهائي. في هذا اليوم قرأت ما استطعت من كتاب الحسبان الجامعي وبالطبع كان

لا بد أن أترك (أبيع) بعض الفصول لضيق الوقت. ودخلت الاختبار وقدمت فيه جهدي بما عندي من المعلومات.

انتظرت النتيجة بفارغ الصبر (على أحر من الجمر)، كانت النتيجة تعلن بشكل مفاجئ على لوحة (بورد) الكلية وكنا نسمع الإشاعات عنها يومياً، ستصدر اليوم، ستصدر غداً، وهكذا. لم أكن من محبي التشويق والإثارة ومتابعة أخبار النتيجة، فعاجلاً أم آجلاً سنعرف النتائج. على عكس كثير من الطلاب الذين يتجمهرون حول البورد كل يوم ليراقبوا صدور النتائج، حتى إذا صدرت النتائج وجدت منهم اقتتالاً عنيفاً لمعرفتها وتصويرها ليس فقط نتائجهم بل نتائج زملائهم والعشرين الأوائل ربما. كان هذا النوع من الناس يهتم بالمعلومات الإضافية والشائعات أو الشمارات، وكان يطلق على من يقوم بهذا العمل (شليق) أو ملقوف. ظهرت النتائج، وجاءني أحد الأصدقاء مبشراً بنتيجتي، فقاطعته وقلت له (أهم شي، أنا شايل أي مادة؟)، شايل المادة أي راسباً بها، فجاوبني بالطبع لا، والحمد لله حصدت على الامتياز في أغلب المواد خصوصاً الحسبان. كان الدرس الثاني الأهم الذي تعلمته هنا أن لا مستحيل مع إصرار. ربما كان صراع الحضارات عائقاً وحاجزاً كبيراً ولكن يجب أن نبحث عن قواسمنا المشتركة من لسان ودين وإنسانية.

-5-

الهندسة المدنية

الفن من غير هندسة مجرد حلم..
والهندسة من غير فن مجرد حسابات.

ستيفن روبرتس

بعد سنة كاملة من الأكشن والإثارة، بحلوها ومرها، انتقلنا إلى السنة الدراسية الثانية، وبطبيعة الحال كان لا بد أن نبدأ بدراسة مواد الاختصاص (مواد الهندسة المدنية)، فنفترق عن باقي أقراننا في مواد ونجتمع في أخرى. فبعد كثير من المواد العامة كالحسبان والميكانيك والكيمياء والجبر وما إلى ذلك، كان الوقت قد حان لدراسة مواد الهندسة المدنية أو على الأقل البدء في بعض موادها. في السنة الثانية دون غيرها، يستطيع أي شخص أن يميز طلاب الهندسة عن باقي الطلبة، بسبب مادة الرسم الهندسي. مادة الرسم الهندسي تدرس للطلاب في السنة الثانية فقط على مدار فصلين دراسيين، وما يميز الطلبة في هذه المادة هو أدوات الرسم الهندسي. يحمل الطلاب مساطر الهندسة وعلب أوراق الرسم أو ألواح الرسم (البوردات) ويتوشحونها كالبنادق والأسلحة. قد تكون مادة ممتعة وهواية جميلة،

لكن ليس بالنسبة إليّ بالتأكيد! فقد عانيت فيها أيما معاناة وحمداً لله أنها لم تكن إلا في السنة الثانية. كانت برامج الرسم الهندسي عبر الحواسيب الآلية متوفرة في وقتنا، ولكن كطلاب في قسم الهندسة كان لا بد أن نتعلم الأصل والأساس ومن ثم نتجه إلى الفروع كيفما شئنا.

كانت مادة الرسم من التجارب المميزة حقاً في حياتي الجامعية رغم مرارتها، لكنها تستحق التجربة بلا شك. ولا أنسى دكتورة هذه المادة الحازمة الطيبة، جزاها الله خيراً على مساعداتها وصبرها الطويل على من هم على شاكلتي لننجو من معضلة الرسم الهندسي. في السنة الثانية بدأت في تكوين علاقات مع الأصدقاء أكثر عمقاً وتفهماً وشفافية، لم تكن المجهودات فردية أبداً، ففي الفروض الجامعية وأعمال الرسم وشرح المواد، كان ذلك يتم في مجموعات وتعاون بين الأصدقاء. كان لبعض الأصدقاء فضل خاص في مساعدتي على تقريب وجهات النظر والانخراط في المجتمع الجامعي والسوداني بشكل عام، فلهم عظيم الشكر والعرفان.

المعسكرات، وهي ما يطلقونه في السودان على مكان ما أو منزل ما يجتمع فيه الطلاب ويسكنونه في فترات الاختبارات وما قبلها للدراسة والمذاكرة الجماعية. لم تكن هذه المعسكرات موجودة، ليس على حد علمي، في السنة الأولى، وأعزو ذلك في رأيي إلى ضعف علاقاتنا ومعرفتنا بعضنا ببعض حينها. في السنة الثانية كنت قد دُعيت لأول مرة إلى هذه المعسكرات مع بعض الأصدقاء الذين استمرت علاقتي بهم من وقتها إلى يومنا هذا. كانت تجربة ممتعة وفريدة من نوعها، كانت المعسكرات أشبه برحلة استجمام من ضغط

الدراسة وفرصة لنتعرف أكثر، بعضنا إلى بعض. فلان وفلان يجهزان العشاء اليوم، وفلان وفلان ينظفان البيت، وفلان وفلان يشتريان فواتير شحن الكهرباء وهكذا. كانت حياة متناغمة متآلفة تتخللها مهاترات ومشاحنات وطرائف إلى جانب الشروحات والمناقشات العلمية.

لم أكن أتصور في يوم من الأيام أن أجد نفسي قادراً على التأقلم في وضع الدراسة الجماعية، لم أكن من أنصارها قبل ذلك، ولكن بعد تجربتي لها أصبحت عادة معتادة وطبعاً لا نجاوزه في كل فترة اختبارات تمر علينا في الجامعة. كانت المعسكرات مكاناً رائعاً لصهر الثقافات بعضها ببعض، وتقريب الحضارات المختلفة ومزجها، فمثلاً عند إعداد العشاء كنت كثيراً ما أقوم بطهي الكبسة والمندي ونحوهما من أطعمتنا التقليدية، وكان الشباب كذلك يقومون بتحضير الأكلات السودانية الشهية مثل القراصة أو الكسرة بالملاح أو التقلية أو الويكة (مرق البامية واللحم على العجين المخبوز) وشطة الدكوة الشهية واللذيذة التي كانت من أهم الأشياء التي قفلت بها راجعاً من السودان (شطة الدكوة هي شطة تصنع من الفول السوداني الطبيعي). فهكذا كانت المعسكرات مكاناً لدمج الثقافات وتبادل الخبرات في ما بيننا، بل وحتى ما بين الطلبة السودانيين أنفسهم، فالسودان كبير بمساحته وغني بتنوع ثقافاته وأعراقه وقبائله، من شرقه عند البحر الأحمر والحبشة إلى غربه عند ليبيا وتشاد وأفريقيا، ومن شماله عند مصر إلى جنوبه عند كينيا وأوغندا (قبل الانفصال، لكن بعد الانفصال أصبح جنوب السودان دولة مستقلة).

بدأت مرحلة التكيف والتطبع بطبائع أهل النيلين الكرام من

خلال هذه المعسكرات، ففي الصباح الباكر وبعد الاغتسال وتسويك الأسنان، يستحيل أن لا يشرب السودانيون الشاي بالحليب أو كما يقولون (شاي باللبن) مع قطع البسكويت أو الزلابية، كنا غالباً ما نصنع الشاي باللبن في المعسكر نفسه لحفظ الوقت عوضاً عن الذهاب إلى حجات أو ستات الشاي. بعد ذلك نهم في دراستنا وشروحنا إلى أن يحين وقت الفطور قرابة الظهيرة، نعم الظهيرة! بخلاف ما اعتدت عليه سابقاً، غالباً ما يكون الفطور أساساً من الفول بمختلف أشكاله فهناك الفتة والبوش والمصلح وغيره. كانت مرحلة إعداد الفطور بحد ذاتها برنامجاً ممتعاً تتشارك الغالبية فيه ويدفع كل منا الشير (ما نسميه القطة) لشراء حاجيات الطعام. أما الغداء فيكون قبيل المغرب بقليل، ويتكون من أطباق اللحوم كالقراصة بالملاح أو الكبسة ونحو ذلك. يتبع ذلك عادة متأصلة أيضاً وهي شرب شاي اللبن بعد المغرب أو كما يطلق عليه شاي المغيرب، وهي فترة استرخاء وتجاذب الحديث والونسة في مختلف المواضيع، وهي عادة جميلة فيها ترويح عن عناء يوم كامل من النشاط. وأما وجبة العشاء فتكون في وقت متأخر من الليل وتتكون غالباً من الفول أو الطعمية (الفلافل). ولا أنسى أحياناً كم كانت نقاشاتنا تطول وتطول لتحديد نوع العشاء أو الغداء، حتى أنه في بعض المرات كنت أخرج يائساً من التوصل لحل لتناول العشاء وحدي، وأعود لأجد الأصدقاء لا زالوا يتجادلون!

مرت السنة الثانية سلسة خفيفة لولا الرسم الهندسي، ولكنها مرت على كل حال. وانتقلنا إلى السنة الثالثة، حيث المواد المشتركة مع غيرنا من الهندسات أقل للأسف، ومواد التخصص في الهندسة

المدنية أكثر وأكثر. البعبع، الغول، المرفعون، وما شئت من أمثال هذه التسميات التي كان الطلاب يطلقونها على السنة الثالثة، لأنها كما يقولون الحفرة أو الغربال الذي يقع فيه كثير من الطلبة ويربتون (يعيدون) هذه السنة مراراً وتكراراً. حسناً، إنها أقوال فيها قليل من الواقع وكثير من الشمارات! من الدروس التي تعلمتها هنا، لا تلتفت إلى المحبطين والمتخاذلين الذين تراهم في كل واد يهيمون ويرتعون، شمّر عن ساعديك وادخل المعمعة ولا تيأس. المساحة، والتصميم الهندسي للمنشآت المعدنية والخرسانية، ومقاومة المواد، وهيدروليكا الموائع، وغيرها من المواد التي تعتبر مقدمة للهندسة المدنية كانت تقدم في السنة الثالثة إلى جانب بعض المواد المشتركة كالإحصاء والرياضيات وغيرها.

في السنة الثالثة كنت قد لمست الفرق في شخصيتي، ثقافتي، تحصيلي العلمي، تكيفي واندماجي في المجتمع، أعتقد أنني وصلت قمة التغيير في السنة الثالثة، فشعرت بملامح الشخصية الجديدة تتشكل. لم أعد ذلك الشخص الذي أتى من البادية والذي يحمل من طبيعتها القاسية وصحرائها الشيء الكثير، ولكني لم أزل أحافظ على تراث البادية ومجدها وتقاليدها. الأمر أشبه بصقل الشخصية وتحسينها، مرحلة انتقاء واستبعاد لبعض العادات عن غيرها، اكتسبت مهارات جديدة، تعرفت إلى ثقافة أخرى، تخليت عن عادات سيئة، اكتسبت معرفة أوسع ووعي أنصع، اختلفت طريقة نظري وتقييمي للأمور وتقديرها، أعتقد أن كل ذلك كان للأفضل بالنسبة إلي.

كنت لا أزال أعاني من جانب الصدام الحضاري مع الفتيات،

ولكن للأسف سبق السيف العذل، ولم يكن بيدي من حيلة لتجاوز هذا الأمر أو إيقافه، أو حتى شرح وتقريب وجهات النظر، كنت أعتقد أن الأيام كفيلة بحل هذه التعقيدات والمشاكل، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن! لا تدع عمل اليوم إلى الغد، هذا ما تعلمته حقا ولو كان بعد فوات الأوان. أما من ناحية التحصيل العلمي، فكانت السنة الثالثة هي القمة بالنسبة إليّ، فقد اجتهدت وحصدت من الدرجات ما جعلني في ركب المتميزين والأوائل أو كما يُطلق عليهم الفيرست. لم أكن حفاراً (وهو مصطلح مقابل لكلمة دافور عندنا) ولكني كنت متزناً وحريصاً مجتهداً لا غير. السنة الثالثة هي الفاصل والفيصل حقاً، لا لصعوبتها، ولكن أعتقد لأهميتها ففيها تتشكل الشخصية وينضج الفكر وتتحدد ملامح المستقبل ولو شابها شيء من الضبابية.

فزت هذه السنة في انتخابات دفعتي لمنصب المسؤول الثقافي، لم يكن ذلك المنصب الكبير أو المميز، ولكنني فرحت به أيما فرح لأنه فرصة عظيمة في مشاركة الجانب الشعري لدي مع ثقافة مختلفة ومجتمع آخر. في هذه السنة فقط، بدأت الدفعة – وأعتقد كلية الهندسة – تتعرف إلى كتاباتي الشعرية، وعن ذلك الشاعر المهندس الذي يكتب القصائد متغنياً بفاتنته السمراء، الفاتنة السمراء مرة أخرى. في تلك الأوقات، ربما كان بعض الأشخاص في دفعتي يعرفون حقيقة الفاتنة السمراء أو من هي، ولكني لم أصارح أحداً بعد، وهذا أمر ندمت عليه أشد الندم ولا أزال. كنت أنتظر مواد الإحصاء والرياضيات بفارغ الصبر لأرمق تلك الفاتنة بنظرة خاطفة على استحياء، كانت تغمرني السعادة جراء تلك النظرة البسيطة. ماذا كنت أنتظر؟ لا أدري! أعتقد أن

صراعي الحضاري مع الفتيات شكل لديّ حاجزاً نوعاً ما من الإقدام أو التقدم، هذا من جانب، أما من الجانب الآخر فكنت أعتقد أن تأخري في الإقدام والتقدم دليل على مدى جديتي ورغبتي في بناء علاقة دائمة مستديمة لا يشوبها نقصان ولا خلل. وبين هذا وذاك كنت أسعى أو كما ظننت أنني أقدم الصورة الأمثل عن بيئتي ومجتمعي الذي أتيت منه، وهذا ما أتمنى أنني قدمته. قصتي مع الفاتنة السمراء لم تنتهي ولن تنتهي، وإن كانت هذه السنة هي السنة الأخيرة التي يكون لدينا فيها مواد مشتركة مع باقي الأقسام، ومع ذلك فللحديث بقية.

السنة الثالثة، هي أول سنة تقريباً في تخصص الهندسة المدنية، بحر غزير وأمواج متلاطمة وتخصصات متفرعة لا نزال نسبر أغوارها ونكتشف خباياها. كانت هذه السنة تحدياً رغبني في إكمال مساري في هذا التخصص والإصرار على النجاح فيه بكل عزيمة وحزم. أذكر في مادة تصميم المنشآت المعدنية Steel Design أنه كان هناك مشروع تصميم يقوم له كل طالب في كل مادة تصميم. بعد أن أنهيت مشروعي وسلمته لمشرف المادة تفاجأت بنقص في درجاتي، راجعت هذا المشرف الفاضل وكان الحوار.

- يا أستاذ، بس ممكن أعرف ليه درجاتي ناقصة رغم أن الحل صحيح؟
- أشوف الورق (وأخذ يقلب الصفحات)، أيوه لأنك اختصرت الحلول وما شرحتها بالتفصيل.
- بس يا أستاذ أنا مهندس، واختصرت بعض الأمور لأنها بديهية.
- (أخرج بطاقة المجلس الهندسي الخاصة به)، دا رقمي

الهندسي، أنتا عندك رقم هندسي؟ لما يصير عندك رقم
هندسي اختصر الحلول.

كانت هذه الحادثة ومثيلاتها ما زاد إصراري على النجاح والمثابرة على الطريق والصبر حتى أبلغ المنشود وأحقق الهدف. من سار على الدرب وصل، هذا ما يجب أن تؤمن به ولو بعد حين. لم يكن الدرب يسيراً وسهلاً ممهداً، بل كان وعراً تملأه المطبات! لم يخطئ السودانيون حين قالوا (الهندسة تصرف) على غرار (العسكرية تصرف)، فالحق يُقال كانت الهندسة المدنية، مصنع الرجال ومعترك الحياة الجامعية، قضينا فيها الليالي سهراً وعملاً والأيام شغلاً وبحثاً حتى بدأنا الإلمام بجوامعها ومعرفة الشيء اليسير من أعماقها وغامضها. كم من مادة كانت عصية على الفهم، أشبه بالطلاسم، لا أجد لفهمها سبيلاً، كان التعاون فيها واجباً، وكما يقول المثل (كل مشروك مبروك)، العمل الجماعي هو أهم ما يتعلمه الشخص في حياته الجامعية. كنا نستشعر أننا في مركب واحد إن تعاونا نجحنا ووصلنا في الوقت المطلوب، وإلا تخبطنا في الموج يمنة ويسرة. ما أحلى الراحة بعد تعب والحصاد بعد طول زرع، على مدار السنة الثالثة من التعب والسهر والإنجاز وكثرة المواد وتشعبها، فالحق يُقال إن الهندسة المدنية في جامعة الخرطوم لم تدع مادة شاردة ولا واردة إلا وأدخلتها في مناهج التدريس، فلا تخصص محدد بل يتم تدريس كل مجالات الهندسة المدنية من مياه وسدود وإنشاءات وإدارة ومواد وتربة ونحوها فيخرج المهندس منها ملماً بجوامعها مسلحاً بمعرفته ليخوض في أيها شاء.

بعد كل ذلك جاءت النتائج المشرفة وعلقت على البورد وكعادتي

لم أسابق إليها بل انتظرت البشائر من الأصدقاء حتى جاءني البشير (مبروك يا حمزة، فيرست، فيرست). الحمد لله كانت هذه السنة من أهم سنواتي الجامعية وأفضلها تحصيلاً وترتيباً، كانت السنوات اللاحقة جيدة أيضاً وبامتياز ولكن بصورة أقل مما كنت عليه في السنة الثالثة، وذلك لبعض ظروف الحياة من وفاة أخي الأصغر رحمه الله ولم أستطع الرجوع من السودان لرؤيته حينها بسبب الدراسة فأثر ذلك سلبا في شخصيتي وتحصيلي بشكل عام، وكذلك بعض الظروف الخاصة، ولكن الحمد لله أولاً وآخراً، ثم الشكر كل الشكر للأوفياء الأنقياء الذين كانوا لي سنداً وعوناً، الصحبة الخيرة المبادرة هي من أهم نعم الحياة وبها تستمر، فاظفر بذلك تربت يداك.

لا تنسَ نصيبك من الدنيا! فبعد النجاح المثمر وانتهائنا من السنة الثالثة، كانت لنا فرصة استكشاف الجديد وتجربة الغريب. وذلك كله في جامعة الخرطوم، هذه الجامعة هي صرح تعليمي في السودان شهد على أهم الأحداث السياسية والاجتماعية في السودان، تخرج منه نخبة النخبة ومنه خرجت أهم المسيرات. لا أزال أذكر كيف كانت تلمع عيون الناس العوام في السودان عندما يسألونني بتقرا (بتدرس) وين؟ وأجاوبهم في جامعة الخرطوم، يردون مباشرة بانبهار (والله ما شاء الله) فكانت هذه الانطباعات تشعرني بالفخر والامتنان لوجودي ودراستي في هذا الصرح الشامخ.

أخذنا نستكشف الجامعة ونشاطاتها، وهناك في شارع المين أحد أعرق الشوارع داخل الجامعة يوجد ما يسمى بأركان النقاش، وهي حلقات من الطلاب يتحدث بينهم عدة أشخاص ويستمع

الباقون، متوافقين ومعارضين، محللين وناقدين. مختلف الأحزاب السياسية والفكرية والثقافية تناقش وتبرهن وتدحض، حلقات شعرية وحلمنتيشية هزلية، حفلات فنية وعروض كوميدية، كل هذا كان كماً هائلاً من التجربة يستحق الكثير والكثير من المتابعة والتأمل. لم يكن لدينا كل الوقت لاستكشاف ما نريد وما نطمح إليه، فلا بد لكل مهلة من انقضاء ولكل إجازة أجل. لا بد أن نتجهز للذهاب إلى معسكر المساحة لمدة أسبوعين في منطقة السبالوقا، وهي منطقة على النيل فيها شلالات السبالوقا المعروفة. كان لجامعة الخرطوم مبان مجهزة في السبالوقا حيث أن تلك المنطقة بعيدة عن العمران والحضارة.

ذهبنا إلى المعسكر وحططنا رحالنا في عنابر الشباب والفتيات حططن رحالهن في قسم منفصل لهن، لنبدأ من غدنا أحد أكثر التجارب صعوبة وإثارة في حياتنا الجامعية. كانت المهمة هي تطبيق كل ما تعلمناه في مادة المساحة عملياً على أرض الواقع وعلى مساحات شاسعة. تم تقسيمنا إلى مجموعات وكنا نقوم بعمل تجربة كل يوم تقريباً من الصباح الباكر وحتى غروب الشمس، شباناً وشابات. كان فعلاً معسكراً تدريبياً أشبه ما يكون عسكرياً. كنا في فصل الشتاء، وحمداً لله على ذلك، وعلى الرغم من هذا لكن الشمس كانت ساطعة وطبيعة المكان الجبلية الجافة كانت صعبة ووعرة، وما زاد من الصعوبة والإرهاق قلة الطعام والشراب، كان معسكراً حرفياً. ولكن عندما كنا ننتهي مع غروب الشمس، تبدأ الونسة وجلسات الأنس والأشعار والطرب والأهازيج، أياماً لا زال عبقها خالداً في الذكرى وثابتاً في الفؤاد.

في إحدى الليالي كنت نائماً على عنقريبي (سريري) وإذ بصديق لي يعاني من صعوبة في التنفس، فطلبنا المساعدة من طبيبة مقيمة معنا في المعسكر فحاولت أن تحقنه بعلاج ما ولكن لم ينجح الأمر، وبدأ الأمر يزداد صعوبة فجاء أحد الأخوة وبدأ يرقي هذا المريض بالقرآن وإذا به ينتفض ويصرخ، أنا هنا (وقف شعر راسي) وأخذ جميع الطلبة بالنظر على تخوف وهلع، وكان ما كنا نخشى. أعتقد أن هذا المريض كان به (مس) لأنه كما كان ينطق هذا المريض في صرعه أنه داس على أحد أعشاشهم (الله يكفينا شرهم). كان بعض الطلبة يؤخرون أوقات الصلاة وبعضهم يجمعونها مع غيرها من الصلوات ولكن عندما قال الراقي (الما متوضي يمرق- يطلع- برا) إلا وذهبنا كلنا نستبق الباب استباقاً وامتلأ المسجد بالمصلين والمهللين والذاكرين الله كثيراً والذاكرين (أحيي أنا). كان موقفاً لا يُنسى، فيه من الطرافة بعض الشيء وفيه من الخوف الكثير، فكان الطلاب لا يتحركون إلا في جماعات في الليل حتى وإن أراد أحدهم الذهاب إلى دورات المياه وإن كان هذا أمراً مستبعداً في الليل بعد هذه الحادثة. ولكن حمداً لله تم علاج صديقنا المريض وبرأ مما كان فيه وعادت الأمور إلى مسارها الطبيعي نوعاً ما.

في الأيام التالية كنت في حالة من الإرهاق والتعب ونقص الطعام ما الله به عليم، فما كان مني إلا أن غمرت (أُغمي علي) في إحدى التجارب الميدانية، ليقوم بحملي بعض الأصدقاء والعودة بي إلى عنابر النوم، وهناك جاءت الطبيبة المناوبة ولكنها كانت خائفة بعض الشيء من أن يكون بي ما كان في زميلنا الممسوس بالأمس فلم تستطع متابعة

العلاج وحقني بالدريب (المغذي). فما كان من الشباب إلا أن جاؤوا بصديقنا الراقي وبدأ يرقيني بالقرآن ويجلس على صدري وينظر إلى قدمي إذا تحركتا ليقوم بمصارعة المس. تنبهت في هذه اللحظات وأشرت له أن يتوقف ويجلسوني، جلست وطلبت بعض الماء شربته وقلت له (الله يجزاك الخير، ما فيني إلا العافية) وحمداً لله لم أتلقَّ أي ضربة من هنا أو من هناك إذا اعتقدوني ممسوساً خطأً.

ولله والتاريخ، كان المشرفون والأساتذة والزملاء خير عون ووجدت منهم كل اهتمام في فترة مرضي بل وفي كل ما مررت به من محن ومصائب على مدار السنوات الدراسية. أعجز عن شكرهم ولا أرجو غير أن أكون عند حسن ظنهم دائماً، وأكون لهم إذا احتاجوني. بهذا كانت هذه الرحلة الجميلة المثيرة قد انتهت بسلام وقفلنا راجعين إلى الخرطوم في باصات الجامعة.

هكذا انتهت السنة الثالثة، تلك المرحلة الفاصلة والحقبة التاريخية في دراسة الهندسة المدنية في جامعة الخرطوم. كنت في بعض المرات أقفل راجعاً إلى البلاد، وذلك في الإجازات السنوية الصيفية ولكن لفترات قصيرة ومحدودة، لا ألبث بعدها أن أعود إلى السودان الحبيب. بعد هذا النجاح – ولله الحمد – والتقدم في مسيرتي الدراسية، أنا وزملائي الطلاب، بدأنا نفخر بالانتماء إلى الهندسة المدنية. كانت رغبة بسيطة تدفعها وجهات نظر اجتماعية، وأصبحت الآن شغفاً وولعاً يدفعنا لننهل المزيد والمزيد من بحر هذه الهندسة الشيقة.

انتقلنا إلى السنة الرابعة حيث المواد كلها تقريباً في الهندسة المدنية، لم يعد هناك ما يجمعنا مع طلاب دفعتنا من بقية الأقسام

للأسف. ولكن على صعيد آخر توسعنا في مواد الهندسة كالتصميم والمياه والتربة، ومن هنا بدأ تخصص التربة والأساسات يجذبني وتعلقت به كثيراً حتى تخصصت به وعملت في مجاله لاحقاً. بالنسبة إليّ، لم تكن السنة الرابعة لامعة براقة كسابقتها السنة الثالثة، وذلك لظروف خاصة وشخصية صعبة مررت بها كما أسلفت سابقاً، فكان لها التأثير الكبير والجلي على مختلف جوانب حياتي عموماً وتحصيلي الدراسي خصوصاً.

بدأ تحصيلي الجامعي كمنحنى من الأسفل ووصل قمته في السنة الثالثة ثم عاد لينخفض بعد ذلك، ولكن – حمداً لله – أنه لم يهوِ إلى أسفل سافلين، فبحمد الله تمكنت من التخرج بالامتياز. وهنا كان في جملة ما تعلمته أن لكل شيء إذا ما تم نقصاناً، وأن اليأس هو مفتاح الخذلان والخسارة، بينما الإصرار هو مفتاح النجاح والبشارة. كنت قد تركت الداخلية، السكن الجامعي، في السنة الثالثة مؤقتاً للشعور بالاستقلالية وأخذ قسط من الخصوصية والراحة، وسكنت مع بعض الزملاء في بيت سكني بمنطقة الأملاك في بحري، وفي نهاية السنة الثالثة تم نقل الداخلية من منطقة السجانة إلى منطقة الخرطوم 2، وهي منطقة سكنية وجميلة بين الحدائق والنوادي والمساجد تقطنها العائلات، ومن هنا تبدأ المشكلة. عدت في بداية السنة الرابعة إلى الداخلية الجديدة لتجربتها وتجربة العيش في هذه المنطقة الجديدة وليتني لم أفعل حيث أنني لم ألبث أن غادرتها مع صديق من البلاد لنستقر في دور علوي (ملحق) في منطقة أركويت في عمارة عائلية لم تقصر في ضيافتنا واعتبارنا أفراداً منها. كان هذا الملحق رفيقنا إلى أن

تخرجنا من الجامعة وقضينا فيه أجمل الأوقات والذكريات فكنا نمتلك حديقة بالأسفل فيها ما لذَ وطاب من النبات والزرع تصدح فيها الطيور كل صباح، وكنا نسمر ونجلس ليلاً على سطحنا ونقوم بإعداد القهوة على النار والحطب وما يصحب ذلك من أشعار وقصائد وتوجد.

وبالعودة إلى الداخلية في الخرطوم 2، للأسف لم يرع بعض الطلبة حق الجوار وحرمة الجار من حفظ محارمه وغض البصر استعفافاً واستحياء، بل على العكس والنقيض فكان بعض السفهاء من الطلبة يتعرضون للحرمات ويهتكون ستر البيوت بالتلصص وسرقة الأنظار وإيذاء الجيران بشتى الطرق، نصحتهم ولكنهم لا يحبون الناصحين. بدأت المشاكل بالاستفحال مع أهل الحي وسكان المنطقة، وأهل السودان أهل مروءة وغيرة فما بالك أن يفعلوا مع غرباء لم يحترموا غربتهم ولم يقدروا مضيفهم! وحيث أن الشر يعم والخير يخص، وحفاظاً على سمعتي الطيبة مع سكان المنطقة وأهل مسجد الحي الذي طالما شاركت معهم في المناسبات الاجتماعية والنشاطات الخيرية من مساعدات وتثقيف ومشاركتي بقصائدي معهم في مختلف الأنشطة، فما كان مني إلا أن غادرت الداخلية إلى الشقة أو الملحق الخاص في منطقة أركويت. كم أسفت وأسفت على أمثال هؤلاء الشباب، الذين انسلخوا من رقابة الدين والعادات والتقاليد السمحة الأصيلة، ومرقوا منها كما مرق السهم من الرمية، وليت شرهم خصهم ولكن عم الشر وأصبحت تلك الصورة هي صورة نمطية عن الطلبة الوافدين التي أتمنى أن تتبدل وأن لا تنتشر في غير تلك المنطقة. والحق يُقال، كان هناك بعض من الزملاء معي أتينا إلى السودان بعاداتنا الأصيلة

وتقاليدنا الحميدة وعدنا من السودان كما أتينا، بل وعدنا بأفضل مما كنا لدينا فاكتسبنا من السودان كل حميد وتخلصنا من كل سيئ كنا نحمله، فشكراً للسودان وشكراً لأهلنا السودانيين على كرمهم وطيبتهم ودماثة أخلاقهم وطول صبرهم وحلمهم على الطلبة المغتربين والمبتعثين. كانت تلك الحوادث والغرائب من الأسباب التي أثرت عليَ سلباً في نفسيتي وتحصيلي العلمي، ولكن حمداً لله على كل حال.

في السنة الرابعة كان هناك أسبوع المهندس الثاني الذي نحضره في الجامعة، وهو عبارة عن نشاط هندسي تفاعلي تنظمه الجامعة كل سنتين مرة واحدة، ويكون وقتها إجازة من المحاضرات والمهام الدراسية، لم أكن قد ألممت به في السنة الثانية لكوننا حديثي عهد بالهندسة. ولكن في السنة الرابعة كنت قد عزمت على المشاركة فيه وأتيحت لي الفرصة عن طريق أحد الزملاء الأعزاء إن لم يكن أعزهم، وكان من المناطق الشمالية في السودان من قبيلة الشوايقة. كان رجلاً وشهماً كريماً ونعم الصديق وخير الرفيق. عرض علي حينها المشاركة معه في مشروع لنا نعرضه في أسبوع المهندس، ففي أسبوع المهندس يعرض الطلبة مشاريعهم من مختلف الأقسام والتخصصات بحضور الأساتذة والدكاترة ورؤساء الأقسام والشركات الهندسية من خارج الجامعة وأفواج الطلبة وعوام الناس من الزائرين، فهو حدث كبير على مستوى السودان يتم الإعلان عنه في مختلف المناطق.

شاركت مع هذا الصديق وقمنا ببناء نموذج لجسر مائي متحرك موجود في اسكتلندا وهو من أحد أروع الأعاجيب في الهندسة المدنية، يدعى هذا الجسر عجلة فالكيرك Falkirk Wheel وقد تم افتتاحه في

عام 2002 وترتكز فكرته على نقل السفن من أحد الأنهار المرتفعة إلى بحيرة بعيدة منخفضة عن مستوى النهر عن طريق جسر مائي وعجلة متحركة تقوم بالدوران لرفع السفن من البحيرة إلى أعلى الجسر وفي الوقت نفسه ينقل تلك التي بأعلى الجسر إلى البحيرة. بدأنا بشراء الحاجيات الضرورية من أدوات ومعدات كالخشب والزجاج والألواح المعدنية والأدوات وبدأنا في الرسم والتخطيط وحساب الأحمال والتفكير والتجربة والتعديل، كنا في سباق مع الزمن فقد اقترب موعد العرض ولم نكن قد انتهينا بعد، ولكنها العزيمة والتعاون وروح الفريق والإصرار. انتهينا من عمل مجسم الجسر وملأناه بالماء وصممنا العجلة ولكن واجهتنا مشكلة تحريك العجلة فلم نرغب بتحريكها يدوياً، أردنا شيئاً مبهراً وناجحاً، فتعاون معنا أحد الزملاء من قسم الهندسة الميكانيكية وقمنا بتركيب محرك أخذناه من أحد سيارات الألعاب وقمنا بتوصيله بالعجلة فكان قادراً على تحريكها ولفها وقدمنا هذا العرض لمختلف الزائرين وقد نال استحسانهم. لم نفز بمركز متقدم ولم نحصد أي جائزة، ولكن حصدنا التجربة والتعلم والتدريب، فالتعاون واجب وروح الفريق هي ما يبث الحياة في نجاح أي مشروع، وهذا ما لمسته ولمست أهميته لاحقاً في المجال العملي بعد الجامعة. وهكذا انتهت السنة الرابعة بإثارات أقل وحماس أقل من سابق عهده ولعل هذا من سنن الحياة وطبيعتها.

في نهاية إجازة السنة الرابعة، وقبل بداية السنة الخامسة، كان هناك ما يسمى بالرحلة العلمية. كنت قد شاركت في رحلات مختلفة مع الدفعة واستمتعت بها كثيراً، ولكن هذه الرحلة تختلف عن مثيلاتها،

حيث أنها رحلة علمية لجامعة أخرى خارج السودان. وقع الاختيار حينها على ماليزيا، فبدأ الطلاب بتجهيز البرنامج والتنسيق مع الجامعات الماليزية وشركات السياحة والفنادق لتجهيز برنامج الزيارة، كنت وقتها في البلاد لقضاء الإجازة، ولكن حينما جهز الزملاء الأمور واتفقنا على الوقت والمكان حينها ركبت الطائرة إلى ماليزيا وقصدت مطار كوالا لامبور. كانت تجربة فريدة من نوعها والأولى في أن أحط رحالي في مطار ضخم وعملاق كمطار كوالا ولكن حين وصلت وجدت بقية الدفعة أمامي فأنست بهم وهدأ روع نفسي وانفرجت أساريري. وصلت الباصات التي ستقلنا من المطار إلى أحد الفنادق، وكان الوقت متأخراً بالليل واستغرقت رحلة الطيران وقتاً طويلاً جداً ما من شأنه أن يرهقنا ويجعلنا لا نريد سوى النوم العميق في الفندق (النوم سلطان).

في الصباح الباكر تجمعنا في اللوبي وأخذنا نستمع لبعض النصائح والتوجيهات ومعلومات عامة عن ماليزيا وطرق التنقل فيها وماهية برنامجنا التعليمي والسياحي. ذهبنا بعدها للاستكشاف وسبر أغوار هذه البلاد الجديدة وزرنا مختلف الأماكن فيها من السوق الصيني والقرية الهندية والمتاحف الوطنية والأسواق التجارية ونحوها. ثم التحقنا بالبرنامج التعليمي في أحد الجامعات الماليزية، كانت مدته أسبوعاً واحداً فقط وكان بحد ذاته تجربة فريدة وطريقة ممتعة لتعلم شيء جديد في جامعة مختلفة. بعد أن أنهينا البرنامج التعليمي هذا، انتقلنا من العاصمة كوالا إلى أحد جزر ماليزيا الرائعة لنكاوي، وهي جزر تضاهي جزر هاواي جمالاً. فالجو البديع، والخضرة الدائمة، والأمطار الخفيفة، والنسائم الباردة، والنشاطات والرياضات البحرية

ومختلف المعالم السياحية ومدن الملاهي وغرائب الأطعمة والأشربة والفواكه وعجائب الأماكن كحديقة الفراشات وحديقة الفواكه والحديقة المائية والحديقة الطبية وحديقة الزهور وكهف الخفافيش وبحيرة التماسيح وجزيرة الغوريلا وجرز المرأة الحامل وغيرها كثير مما جعل هذه الجزر من أفضل الأماكن التي زرناها في ماليزيا وأكثرها متعة.

جربنا نشاطات عديدة ممتعة من ركوب المراكب البحرية المختلفة والطيران الشراعي وركوب التلفريك وغيرها من النشاطات المسلية. وعدنا بعدها إلى كوالا لنقضي فيها أياماً قلائل قبل الرجوع إلى السودان لمواصلة دراستنا والبدء في السنة الخامسة. وهناك حين عدنا إلى كوالا، رأيتها، رأيت الفاتنة السمراء! رأيتها من مسافة بعيدة ولمرة واحدة فقط وليتني لم أرها، أو ليتني كلمتها وصارحتها في ذلك الوقت، فزادت اللوعة لوعة وزاد القلب حرقة وتولهاً، وما زالت الفاتنة السمراء ولم يزل الحديث عنها ذا شجن وبقية.

عدنا أدراجنا إلى السودان، بعد هذه الإجازة الممتعة التي أراحتنا كثيراً مما عانيناه من ضغط دراسي وهم جامعي في السنوات الماضية، فعدنا وقد امتلأنا نشاطا وعزيمة لنبدأ السنة الخامسة والأخيرة بعد أن نجحنا بحمد الله في السنة الرابعة. خالطتني مشاعر غريبة وعشوائية في هذه السنة، تكاد تكون شبيهة بتلك التي خالطتني في السنة الأولى، فلا أدري أهو خوف من المجهول الذي ينتظرنا بعد التخرج، أم هو توجس وخوف من فراق الأحبة والزملاء الذين خالطناهم طويلاً وعاشرناهم نعم المعشر! لا أدري؟!

في بداية السنة الخامسة تهافت الطلاب على اختيار عناوين مشاريع التخرج المتاحة والأساتذة المشرفين. إنه موضوع محير ومهم وخطب جلل، ولكن لا مجال للتأخير والتفكير، فالطلاب في سباق لأخذ المشاريع المطلوبة والمفاضلة تكون من حيث التحصيل العلمي لمجموعة الطلبة المتقدمين. اجتمعت وثلاثة من زملائي ووقع اختيارنا على أحد المشاريع مع البروفيسور إبراهيم النعمة، أحد أقدم الأساتذة في قسم الهندسة المدنية في جامعة الخرطوم إن لم يكن أقدمهم، وحمداً لله كما عرفنا لاحقاً أنه كان اختياراً موفقاً. فالجديد في هذه السنة هي مشروع التخرج، ومادة أخرى هي مادة التربة المتقدمة والأساسات التي يقدمها الدكتور عمر سويل (soil) حيث سويل تعني تربة! نعم فكان من الشدة والحزم وتعلقه في هذه المادة ما جعل الطلاب يطلقون عليه هذا اللقب عمر سويل. كان أستاذاً حازماً، دقيقاً جداً في مواعيده، يغلق الباب في تمام الساعة الثامنة صباحاً وهو وقت المحاضرة، ولا يفتح ذلك الباب لأي ظرف كان إلا عند انتهاء المحاضرة. كان الطلبة يهابونه، ويخافون مواده واختباراته، حيث كانت له طريقته الفريدة في التقييم السنوي للطلاب، فكان يقوم بمناداة الطلاب عشوائياً في كل محاضرة ويسألهم أسئلة عملية في مجال التربة، فمن جاوب فقد سلم ومن لم يجاوب فقد رسب وخاب و(شال) المادة، وكان هذا كفيلاً بإخافة الطلبة وارتباكهم عند الوقوف أمام الطلاب لإجابة أسئلة د. عمر سويل. ولكن على عكسي تماماً، فقد أعجبت بطريقة الدكتور عمر وما زادني إلا ترغيباً وولعاً في تخصص التربة أو ما يعرف بـGeotechnical Engineering وكان

حزم هذا الأستاذ وطريقته الصارمة في التدريس سبباً كبيراً من أسباب تميزي ونجاحي في مجال عملي لاحقاً في هذا التخصص، فله جزيل الشكر والعرفان والكثير الكثير من الدعاء.

كنت متذبذباً في هذه السنة من حيث الدراسة والرغبة والتفكير والنفسية التي تصفو تارة وتتكدر تارة أخرى، وأعتقد أن هذا كان حال أغلبية الطلاب إن لم يكن كلهم. كانت السنة الخامسة من الضغط والتوتر ما كان كفيلاً بشغلنا وشل تفكيرنا عن أي شيء سوى الانتهاء والنجاح من هذه المواد وإنهاء بحث التخرج ومشروعه قبل فوات الأوان. انتهى الفصل الأول بعد مد وجزر وشد وجذب كادت أن تهلكنا، ولكن كما قيل (ما بقى شي) وهانت على حصد ما قد أتينا لأجله، فبعد سنين وأيام قضيناها من عمرنا في مطاردة وتحصيل وتعلم بات النور قريباً والهدف واضحاً جلياً والعزيمة مندفعة إلى أقصاها لنيل ما جئنا لأجله.

كانت نتائج الفصل الأول مرضية نوعاً ما بعد كل هذا التوتر والظروف النفسية التي مررت بها في هذه الفترة، وأقله – حمداً لله – أنها كانت لا تزال في مراتب الامتياز والمتفوقين. بدأنا الفصل الثاني بعزيمة أكبر من الفصل الأول وبهمة ونشاط من اقترب من تحقيق الهدف، فقد بات الهدف قريباً نراه ونطمح إليه. كنا نجتمع كل أسبوع أنا وزملائي الثلاثة في مشروع التخرج لإنهائه والعمل عليه، كنا نواصل الليل بالنهار، لا نكل ولا نمل من البحث والتدقيق والتمحيص، وكان إذا تقاعس أحدنا استلم الآخر مكانه وأكمل، كان التعاون على أوجه وأكمله، رعى الله تلك الصحبة وسقى الله تلك الأيام ما أحلاها وأجمل

وقعها في الفؤاد وطيب ذكراها. كان هذا ديدننا في العمل على مشروع التخرج، حتى أنهيناه في الموعد المحدد وقمنا بتسليم النسخ النهائية للتدقيق والمراجعة، ثم بعد ذلك المناقشة. والمناقشة هي أهم خطوة في دراسة الهندسة المدنية، هي ما انتظرت خمس سنين لأجله، تشعر كأنك في محكمة ما، وما أنت إلا محام مع فريق أصدقائك المحامين ترافع عن قضيتك (مشروعك) أمام لجنة القضاة (الدكاترة) ليناقشوك ويمحصوا المشروع معك تمحيصاً.

ذهبنا إلى أحد الأسواق نحن الأربعة وابتعنا ملابس موحدة تليق بمناقشة مشروع تخرجنا، واتجهنا في الغد الباكر إلى الجامعة لمناقشة المشروع. كان الارتباك سيد الموقف، فكيف لنا أن نقف لنرافع عن مشروعنا أمام مجموعة من جهابذة العلم ورواد الهندسة المدنية، بدأنا بالمرافعة وكنا جميعاً في قاعة الاجتماعات، وكان يتم استجوابنا واحداً تلو الآخر، أخطأنا بعض الأخطاء وأصبنا ما أصبنا، وقد كان البروفيسور خير عون لنا ومدافع حقيقة، وبحمد الله بعد جهد جهيد فرجت وكنت أظنها لا تفرج، مبروك خلصت المناقشة! ما زلت أذكر كيف كانت تلك اللحظات وكيف كانت فرحتنا في تلك اللحظة، اغرورقت العيون بالدموع، وابتهجنا أيما ابتهاج والتقطنا الصور وتجاذبنا الأحاديث والذكريات وصرنا نتحدث كالمعمرين الخبيرين في الهندسة، يا لها من أيام مرت سراعاً في لمح بصر. لا زلت أذكر كيف دخلت الجامعة لأول مرة خائفا أترقب، واليوم جئتها على قدر بالنجاح والإنجاز! سنوات طوال من المكافحة والصبر، تجرعنا من المر والحلو في سبيل الوصول إلى هذه اللحظة. انتظرنا النتائج بفارغ الصبر، حتى جاءت

البشائر تنهال تترا، فلك الحمد ربي على توفيقك وفضلك. نجحنا وحققنا الامتياز مع مرتبة الشرف، وكنت راضياً عن النتيجة جداً على الرغم من نصائح زملائي أنه لو (شديت حيلي) لكنت حققت نتائج أحسن أو لكنت الأول أو من العشرة الأوائل، ولو أنني لم أكن أستعجل بالخروج من قاعة الامتحانات مبكراً لكان وكان. كانت تلك عادتي، كنت غالباً ما أغادر الامتحانات قبل منتصف الزمن أو معه لا لفصاحتي أو لذهانتي، ولكنني أحب الاختصار والإيجاز فأكتب وأحل ما أعرفه و(على الله). وعلى أي حال، انتهينا وحصدنا ما زرعنا وكان لزاماً أن من سار على الدرب وصل. هكذا طويت خمسة أعوام في دراسة الهندسة المدنية، ولكن لم تطوَ الحياة الجامعية والكثير من القصص والتفاصيل التي ما زال في الجعبة منها الكثير.

-6-

السودان.. معالم وثقافات

لا يسافر المرء لكي يصل..
بل لكي يسافر.

غوته

خمسة أعوام انقضت وطويت بتفاصيلها الجامعية والدراسية، حلوة ومرة. ولكن ماذا عن السودان؟ عن الأماكن والمعالم والثقافات والتقاليد؟ ماذا يحتوي هذا البلد الواسع؟ الشاسع المساحات مترامية الأطراف؟ هذا ما لم أتطرق له من قبل، وأعتقد أن وقت الحديث عنه قد حان، وليس من رأى كمن سمع. كنت في فترة وجودي ودراستي بالسودان على الرغم من اندماجي وتعايشي مع المجتمع السوداني، إلا أنني كنت أحاول جهدي التمسك بعاداتي وتقاليدي ما استطعت، ونشرها وتعليمها لمن حولي هناك، وهذا لا يمنع من أن أستقي ثقافة السودان وعاداتهم وأعرف عنها ما استطعت أن أعرف وألاحظ وأدون ما رأيت وسمعت وجربت. بعد عودتي إلى البلاد أذكر كيف كان يُصدم الأخوة السودانيون الذين صادفتهم في مكان العمل أو في أي مكان آخر، كانوا يُصدمون بمقدار المعلومات وخبايا الثقافة السودانية حتى

ناداني بعضهم بالمستشرق! ولعلني أستطيع أن أوجز لكم جل أو بعض ما عايشناه أو رأيناه في السودان الحبيب من أماكن ومعالم وعادات وثقافات لتقريب الصورة وتوضيحها.

حجات/ ستات الشاي: لنبدأ بتفصيل هذه الظاهرة أو العادة الاجتماعية التي عرجت على ذكرها بشكل مقتضب من قبل. ستات الشاي هن عبارة عن نساء إما أن يكن من صغيرات السن من الحبشة (أثيوبيا) أو كبيرات السن من السودان، وينتشرن في معظم الطرق والشوارع وبين الحارات (الحلل) وتحت العمارات والمباني وبجانب المصالح الحكومية والأسواق وخارج الجامعات. يبدأ يومهن بكل نشاط بعد صلاة الفجر تقريباً، لكل واحدة منهن كانون (موقد) فحم توقده في الصباح وتسخن مياه النيل عليه، غالباً ما تقوم ستات الشاي بتجهيز الزلابية في الصباح الباكر وغمسها بالسكر لتقديمها مع شاي اللبن كوجبة صباحية خفيفة تبعث النشاط في الأجساد. أما اللبن ففي الصباح الباكر يقمن بابتياعه طازجاً من سيد اللبن الذي يجوب الطرقات على حماره لبيع اللبن، وبعد فترة الصباح لا يكون هناك إلا لبن (البودرة). توفر كل ست شاي عدداً لا بأس به من المقاعد الصغيرة لزبائنها وتسمى هذه المقاعد (بنبر) وتصنع من الخشب والألياف والقش والخيزران. تتعدد المشروبات التي تقدمها ستات الشاي، فمن الشاي السادة، وشاي النعناع، وشاي اللبن، وقهوة الجبنة، والشيريا (الكركديه الساخن)، والقهوة بالحليب، والنسكافيه، والشاي المقنن الشهي، والجنزبيل (الزنجبيل)، وغير ذلك من المشروبات الساخنة. تكون أماكن ستات الشاي ملتقى لأهل المنطقة أو الحارة لتجاذب

الأحاديث في الصباح الباكر قبل انطلاق كل إلى عمله أو في فترة الظهيرة قبل أو بعد الفطور للراحة والاستراحة من العمل، ويستمر الناس بالتوافد على أماكن ستات الشاي حتى فترة المغرب أو العشاء، وعندها تقوم ست الشاي بإقفال المكان وهناك قلة قليلة من ستات الشاي يعملن لأوقات متأخرة في الليل في أماكن محددة.

من أروع التجارب التي لا بد أن تختبرها عند ست الشاي، خصوصاً الحبشيات منهن، أن تقوم بطلب قهوة الجبنة، تلك القهوة الحبشية الأصيلة، تقوم ست الشاي بإعدادها أمامك من تحميص حبات البن على الفحم وتقليبها، ثم طحنها وسحنها وخلطها بالحبهان (الهيل) والدوا (الزنجبيل) وإعدادها وطبخها على النار ثم تقوم بوضعها في إناء (دلة) خاصة بقهوة الجبنة وتقدم معها فناجيل القهوة الصغيرة والسكر وأحيانا الفشار، وللعلم يعتبر الفشار من المنبهات ولذلك فإنه يشترك مع القهوة في هذه الخاصية. هكذا تكون ستات الشاي أقرب ما هن إلى رمز حضاري وصورة شعبية جميلة وهادئة بها الكثير من الونسة والأحاديث والنشاطات وتبادل الأخبار وتصفح الجرائد والاستمتاع بما لذ وطاب من المشاريب.

هناك كذلك بعض الستات يقمن بالطبخ وإعداد المأكولات كفكرة ستات الشاي في الطرقات والأسواق، أو يقمن ببيع الكسرة (نوع من العجين) أو الدكوة (عجينة الفول السوداني) التي تستخدم لصناعة الشطة السودانية اللذيذة وهي من أجمل الأشياء التي عدنا بها من السودان والشمارات (البهارات) ونحو ذلك. ولكن انتشارهن محدود وأقل من انتشار ستات الشاي، وقد ترى هذه النشاطات مثلاً في

سوق الناقة بمنطقة ليبيا في أم درمان حيث تجد الملاحم والجزارات التي تبيع لحوم الغنم والعجل والبقر والجمل ثم تقوم إحدى الحجات هناك بعمل الشية (وهي اللحم المشوي) وتقديمه لك مع السلطات وشطة الدكوة والبارد (الشراب الغازي)، تجربة ممتعة بحد ذاتها وفريدة فضلاً عن الطعم الشهي والطبيعي لهذه الشية.

الأعراس في السودان: لا تخلو منطقة من المناطق أو شارع من شوارع الخرطوم أو صالة من صالات الأفراح من عرس أو حفل زواج هنا وهناك. وإن لم يكن العرس في صالة أفراح، فإنه يكون في صيوان أو خيمة تُنصب في منطقة العريس أو العروس حسب اتفاق العرسان. حضرت أعراساً عدة في السودان لأقارب زملائي والجيران، وشاهدت كلا النوعين سواء حفلات الصيوان أو الصالات. عادة ما تتميز أعراس الصيوان بالبساطة والابتعاد عن الكلفة والتكلف، تكون فيها الدعوة مفتوحة للجميع ولكل مار طريق أو عابر سبيل. وغالباً ما يكون هناك فنان أو فنانة لتحيي الحفل بأغاني الأعراس والأهازيج وأغاني السيرة والدلوكة (الطبل) الشعبية الجميلة. ويكون هناك العشاء الذي يوزع كوجبات على الحضور، هذا في منطقة الخرطوم، أما في الأطراف والأرياف فيكون العشاء أو الغداء جماعياً مشتركاً. ولا تفرق الصالات عن الصيوان في الفعاليات والأنشطة إلا من ناحية تقنين الحضور، شأنها شأن أي صالة أفراح في أي منطقة.

في زفة العرسان أو الكوشة، يكون هناك الجرتق، وهو عادة سودانية أصيلة وتكاد تكون أجمل العادات السودانية في الأفراح على الإطلاق. قبل أن أفصل الجرتق، لا بد أن أذكر فعاليات الأعراس

السودانية وما قبلها، ففعاليات وأنشطة الزواج في السودان تستمر لأيام وأيام، ولكن يجب أن أنبه أنه قد يقوم الناس بإحياء كل تلك الفعاليات أو بعض منها كل حسب تقاليده وعاداته.

أول ما يكون في أمر الزواج في السودان هو "فتح الخشم" والخشم هو الفم، ويقصد بذلك طلب يد العروس من أهلها، وبعد الموافقة يكون هناك يوم "سد المال" و"قطار الشيلة" وهو يوم مخصص للمهر وحاجيات العروس من ألبسة وأطعمة وهدايا وغير ذلك ترافقه الأهازيج وأغاني الدلوكة الشعبية، ويوم القران حيث غالباً ما يعلن القران في أحد المساجد ويوزع الغداء في يوم القران. ثم تكون "ليلة الحنة" للعريس والعروس على حد سواء حيث يحني العريس يديه وقدميه بشكل كامل، والعروس تحني يديها وقدميها بنقوش جميلة وزخرفات بديعة. وقد يكون هناك ليلة "رقيص العروس" وهي ليلة نسائية بحتة لا يحضر فيها سوى العريس والعروس والنساء من الأهل والأقارب وفيها تقوم العروس بالرقص لعريسها بعد أن تكون قد تعلمت الرقص من إحدى المعلمات الشعبيات إن لم تكن تعرف الرقص أصلاً وتعتبر هذه العادة من العادات المحببة لكثير من الفتيات لتعرض كل فتاة مهارتها وحسنها في تلك الليلة، إلا أن البعض أو كثير من الناس لا يعمل بهذه العادة في الوقت الحالي. وكما قلت هذه الفعالية نسائية بحتة فلم أرَ أو أشاهد منها شيئاً، وقد أشاهدها مرة في المستقبل إن كتب الله لنا نصيباً مع الفاتنة السمراء!

ثم يكون يوم السيرة والزفاف أو حفل الزواج وما يصاحبه من الجرتق و"تف اللبن" أحياناً وجلد السياط عند قبائل الجعلية خصوصاً

في الأرياف، وهي أن يقوم العريس بجلد أصدقائه بالسياط أمام النساء وزغاريدهن كنوع من الشجاعة والتقدير للعريس، ولكنه دين مسترد حيث يجب أن يُجلد العريس في أعراس من جلدهم لاحقاً. ثم يكون هناك يوم فطور العريس وقطع الرحط أحياناً، والرحط عبارة عن سيور من جلد الغنم أو البقر تقدم للعريس من طرف خالة أو عمة العروس في صباحية العريس ويقوم العريس بقطع هذه السيور بعد إعطاء وزيرة أو وصيفة العروس مبلغاً من المال، ثم يلقي السيور على النساء للفأل الحسن. قد تزيد هذه العادات وتنقص كل حسب تقاليده وعاداته، ولكن هذه العادات هي العامة والمتعارف عليها في الزواج السوداني عموماً.

لنعد الآن إلى الجرتق، في الجرتق يكون هناك لباس خاص للعريس والعروس قد يخلعانه بعد الانتهاء من الجرتق ليرتديا لباس الزواج التقليدي كثوب الزفاف للعروس والبدلة للعريس. تلبس العروس في الجرتق الثوب السوداني الجميل وهو أحد أهم وأجمل ما يميز المرأة السودانية ويرمز إليها، فتلبس العروس ثوباً حريرياً مطرزاً بالتطاريز الذهبية ويكون غالباً بلون أحمر وطاقية من الذهب الخالص توضع على الرأس وتتصل بالأنف أحيانا وبعض الجنيهات الذهبية حول معصم العروس. تجلس العروس على عنقريب (سرير) خشبي مطرز ومغطى بطريقة جميلة، ويأتي عريسها ليجلس بجانب عروسه. يلبس العريس ثوب السرتي وهو ثوب خاص للجرتق وطاقية الجرتق يعلوها هلال ذهبي ويحمل العريس سيفاً مذهباً ليرقص به بعض الرقصات الشعبية السودانية بهز السيف على أنغام أغنيات الجرتق

الحماسية. ثم يقدم للعروسين طبق فضي مزخرف يحتوي على التمور الفاخرة والحلويات والعطور السودانية الأصيلة كالصندلية وغيرها وبعض العطور الباريسية وكذلك مسحوق الصندل والمحلب وأعواد البخور السوداني المصنوع من الصندل وكوبين من الحليب.

تقوم الحجات بإلباس العروس الطاقية المذهبة ووضع القليل من الخُمرة (عجينة من العطر السوداني) على وسط شعر العروس، ثم يقوم العرسان بتبادل الحلوى والتمور لسبع مرات يأخذ العريس من يد عروسه ويعيد إليها وهكذا حتى المرة السابعة وثم يقوم العريس بمد كوب الحليب لعروسه وهي بدورها تمده لعريسها ليشربا الحليب (اللبن) ثم يتراشقا به في عادة تف اللبن أحيانا فليس الجميع يفعل هذه العادة وبعدها يقوم العريس بتوزيع الحلوى والتمور على الحضور ورش العطور في أرجاء المكان وإشعال الأبخرة الجميلة الفواحة ثم يراقص العريس عروسه على أنغام أغنيات الجرتق الهادئة والرومانسية كأغنية "العديل والزين" مثلاً. ويستمر العرس بعدها بشكل تقليدي عام كجو الأفراح غالباً، وتختلط المشاعر في الأعراس وترى دموع الفرح يمنة ويسرة خصوصاً من والدة العروس ووالدة العريس وبالأخص عندما تعزف بعض الأغاني الخاصة للأمهات أو الآباء، فالشعب السوداني شعب التحنان والمشاعر الجياشة والصادقة وهذا ما تراه جلياً في الأعراس وحفلات التخرج كأغاني (جناي البريدو) و(راضيه عليكي يا بتي) وغيرها.

وتكون الأعراس غالباً أماكن للتعارف والخطبة وقد تكون سبباً لكثير من الشباب والفتيات للزواج، فترى الأمهات يطفن بين المعازيم

للبحث عن فتيات لأبنائهن، وعلى الصعيد الآخر ترى أمهات الفتيات يشجعن فتياتهن على الانخراط في الحفل والاندماج فيه، علها أن تجذب انتباه إحدى الأمهات الخاطبات أو تحوز على إعجابهن. رباه، هل سأحضر عرساً كهذا لاحقاً مشاركاً لا حاضراً؟! أتمنى ذلك.

إن الجو الغالب في السودان وأهله، هو جو المحبة والألفة والهشاشة والبشاشة والترحاب، جو الابتسامة والمرح والأنس وهذا ما لمسته وعايشته في تجربتي هناك، ويظهر ذلك واضحاً في ما يعرف بالفرق الكوميدية. وأعتقد أنها من أوائل من أسس مفهوم الستاند أب كوميدي في العالم العربي، فقد أصبحت هذه الفرق لونا من الألوان الشعبية في السودان، تكاد تجدها في المناسبات العملية والحفلات الجامعية ونحوها لإلقاء النكات ونشر الضحك والترويح عن الناس. ويتميز السودانيون كذلك بحبهم للفن والطرب والقصائد والأدب، ويزخر التاريخ والحاضر بجهابذة الأدب والثقافة والفن ومختلف العلوم، كأمثال البروفيسور الأديب عبدالله الطيب، والشاعر إدريس جماع، والفنان محمد وردي رحمهم الله جميعاً وغيرهم الكثير من الجيل السابق والجيل الحاضر. وحقيقة، كان في هذا الاهتمام بهذه الجوانب الأدبية ما ساعدني في الاندماج بالمجتمع السوداني ومخالطته.

أذكر في إحدى المرات أن قام أحد الزملاء بدعوتي للمشاركة في أصبوحة شعرية في جامعة أم درمان الإسلامية، فتوجهت هناك وشاركت بقصائد نبطية (شعبية) بلهجتي إلى جانب الشاعر حاتم ابن الشاعر حسن الدابي من قبيلة الشوايقة وهو شاعر قدير ومعروف وله

قصائد عديدة ودوبيت مغناة. والدوبيت نوع من أنواع الشعر الشعبي في السودان يكون على غرار الرباعيات. وهناك الشعر الحلمنتيشي وهو شعر فكاهي اجتماعي هزلي مثل قصيدة (بت هندسة) المعروفة. وحضرت كذلك المأتم الذي أقيم لشاعر السودان الشعبي محمد حسن حميد رحمه الله، ذلك الشاعر الذي أثرى الشعر المسرحي عربياً وسودانياً. عرفت وتأكدت حينها، أن الشعر والقصائد والمشاعر ليست بحاجة إلى ترجمان وتعليم، فاللغة واللهجات لا تشكل عائقاً وحاجزاً للاستمتاع بهذه القصائد. فكنت على عدم اضطلاعي باللهجة السودانية وخباياها قادراً على تمييز الجميل من القصائد وأتتبعه حيثما كان، وأتمنى أن يكون لأبياتي وقصائدي الوقع نفسه عند المجتمع السوداني الأصيل.

كان التاريخ السوداني وما زال مادة غنية للفن والأدب، ويساعد على ذلك تنوع الثقافات والحقب التاريخية والسياسية التي مرت على السودان. وترى ذلك جلياً في الفن السوداني امتداداً من فن "زمن الحقيبة" إلى الفن السوداني الحديث. ولعل نهر النيل كان من أهم المواد الأدبية والثقافية التي أثرت الكتاب والأدباء والشعراء والفنانين، فمن الماء كل شيء حي، وهذا ما تراه في أرجاء السودان حيث تتركز المجتمعات وتعيش حول ضفاف النيل وعلى طول امتداده سواء النيل الأزرق أم الأبيض أو امتدادهما بعد الخرطوم وهو ما يعرف بنهر النيل الذي يمتد إلى مصر. بالنسبة إليّ، كان النيل صديقاً ورفيق درب ومكان مناجاة ووله وقصائد، فكم من ليلة قضيتها بالتخييم على ضفافه والشرب من مياهه والسهر على شواطئه تحت النجوم وأمام نيران

الحطب. ولعل ذلك يظهر جلياً في قصائدي التي غالباً ما جئت فيها على ذكر النيل وناجيته، ولعلني أورد منها هذه القصيدة من قصائدي النبطية (الشعبية):

- نشرت هذه القصيدة في جريدة الرياض (وهي صحيفة يومية عربية سعودية تصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية) يوم السبت بتاريخ 6 شوال 1435هـ الموافق 2 أغسطس 2014م:

يا نيل شرابك ظماك وتولهك
كافي معاد العمر حمل القطاعه
مرت ثلاث سنين وازريت لادلهك
واخافقي به لاظي البعد لاعه
يا نيل لي خلن من الطيب يشبهك
أهون علي الموت لحظة وداعه
يا نيل لا تشره على قلب يندهك
لأني لأشوفه فيك والقلب جاعه
يا نيل لو كل المخاليق تكرهك
أبقى معك يا نيل دون الجماعه
يا قلب صمت النيل ماهوب يسفهك
ما له جواب ودمعك يغص قاعه
يا نيل شرابك ظماك وتولهك
بس اسقني يا نيل صبر وشجاعه

هكذا كان النيل عصب الحياة وشريانها ومؤنس وحشتنا، وكأن

هناك هالة سحرية تحوطه فتأسرك وتجعلك تتعلق به، وكما يقول السودانيون (اللي يشرب من النيل، يرجع ليهو تاني). كنت في أعياد شوال غالباً ما أقضيها في ربوع بلادي لطول إجازة شهر رمضان المبارك، أما أعياد الحج الفضيلة فكنت أقضيها في ربوع السودان وخصوصاً في جزيرة توتي، وهي جزيرة تقع في منطقة الخرطوم عند التقاء النيلين يربطها جسر فتح حديثا بينها وبين مدينة الخرطوم وتمتاز بالخضرة والأراضي الخصبة والمزارع والمساكن الشعبية البسيطة والأسواق الشعبية كذلك. ولعل أكثر ما يميزها هي سواحلها النيلية الجميلة والهادئة بعيداً عن المدن وإزعاجها وكهربائها وأضوائها.

كنت أنطلق إلى هذه الجزيرة ومعي خيرة من الأصدقاء من الطلبة المبتعثين والزملاء السودانيين، وقد أحضرت معي خيمة كبيرة من البلاد لنحملها معنا في كل زيارة لجزيرة توتي، وكنا نبتاع خرفان الأضاحي والحطب والفحم والمواد التموينية ونقوم بنصب الخيمة على شاطئ النيل هناك ثم نقوم بتزكية الأضاحي وسلخها وتقطيعها وتجهيزها للشواء أو الكبسة أو المندي ونحو ذلك. كنا نقضي تلك الأيام في أنس وبهجة على ضفاف النيل نشرب من مائه ونرتوي من كرمه ونلعب كرة القدم على شواطئه ونأكل من أطايب الطعام وعندما يحين الليل كنا نجلس في جلسات السمر والطرب والقصائد والأدب ومجاذبة غرائب القصص والأخبار ثم ننام في الخيمة حتى الصباح التالي، وهكذا ليومين أو ثلاثة. كانت رحلة ترويح عن النفس وإزالة للهموم والغموم، نجتمع من شتى الأماكن ومن مختلف التخصصات تجمعنا أخوة وصداقة استمرت ولا تزال. وبين فترة وفترة كنت لا أنفك

أزور النيل مع بعض الأصدقاء أو في بعض الرحلات الجامعية، فكنا نزور مناطق الرحلات كجزيرة الري المصري ومزارع سوبا والعيلفون وجبل أولياء وغيرها من الأماكن التي تقع في الخرطوم أو قريباً منها.

من أولى الرحلات التي ذهبت فيها خارج الخرطوم لمسافات طويلة هي زيارة سد مروي حيث تم تنظيم زيارة للطلاب المبتعثين لزيارة هذا الصرح والإنجاز الهندسي المتميز على نهر النيل لإنشاء الكهرباء لكل السودان. حيث افتتح هذا السد في عام 2009 في المنطقة الشمالية التي تبعد عن الخرطوم ما قدره 350 كم تقريباً. مشروع سد مروي مشروع قومي متميز وضخم تم دعمه من كثير من الدول العربية والعالمية، ويحتوي على مرافق ومنشآت خدمية ومساكن ضيافة متميزة جداً. كانت تجربة فريدة لرؤية سد بهذه الضخامة حيث أنها المرة الأولى أرى سداً على الواقع. ولكننا لم نلبث أن عدنا قافلين إلى الخرطوم بعد رؤية السد ومرافقه دون أن تتاح لنا الفرصة لاستكشاف المنطقة الشمالية الساحرة التي أسرتني بجمالها وطبيعتها. ولكن كان لي عودة في السنين التالية لهذه الزيارة إلى هذه المنطقة الجميلة.

وفي إحدى الرحلات العلمية الجامعية، ذهبنا إلى مدينة عطبرة لزيارة أحد مصانع الإسمنت هناك والتعرف إلى عمليات التصنيع والإنتاج والاختبارات وما إلى ذلك. عطبرة مدينة تقع في ولاية نهر النيل وتبعد عن الخرطوم 310 كم تقريباً وتسمى بمدينة الحديد والنار لاحتوائها على إدارة السكك الحديد في السودان ويقطنها بالغالبية قبائل الجعل وتميزت بتاريخها المناضل ضد الاستعمار الإنجليزي

سابقاً. نزلنا في أحد المساكن الحكومية العامة في عطبرة، وكان هناك قسمان أحدهما للشبان وآخر للفتيات. استمتعنا بقضاء أول رحلة علمية في الجامعة في عطبرة، ورأينا من طيب أهلها وكرمهم حيث كان معنا أحد الطلاب من هذه المدينة فأصر على استضافة جميع الطلاب لدى عائلته الكريمة السخية.

ولعل أبرز ما يميز هذه الرحلة هي طريق عودتنا من عطبرة حيث مررنا وعرجنا على أهرام البجراوية وتقع قرب مدينة شندي وهي من آثار المملكة النوبية "كوش" منذ أيام الفراعنة ولعلني صدمت كما سيصدم الكثير من خارج السودان عن معرفة أن السودان يحتوي على عدد هائل من الآثار والقبور والضرائح التاريخية والأهرامات. كانت تلك الأهرامات تقع بين هضاب وتلال رملية متباعدة يفترش أمامها السكان المحليون بضاعتهم من هدايا وتذكارات تراثية ومنحوتات وسيوف، وكذلك أصحاب الجمال الذي يحملون السياح على هذه الجمال لزيارة الأماكن التراثية الطبيعية التي لم تلوثها أيادي البشر بعد.

ومن الرحلات المتميزة أيضاً، رحلة إلى شرق السودان ومدينة بورتسودان تقع على البحر الأحمر وفي ولاية البحر الأحمر وتبعد عن الخرطوم 675 كم تقريباً، حيث دُعيت إلى مهرجان بورتسودان السياحي في ملتقى الطلاب الوافدين، ومثلت الطلبة هناك وشاركت بقصائد عدة. تمتلئ بورتسودان بالطلبة الوافدين وأجانب من عدة جنسيات عربية وعالمية. لعل المنطقة الشرقية في السودان تركت تأثير المنطقة الشمالية نفسه من حيث سحرها وجمالها. فبورتسودان مدينة هادئة جميلة مرتبة الطرقات والشوارع تشبه إلى حد كبير مدينة

(جدة) السعودية. وتشتهر بورتسودان بمعالمها السياحية ومن أهمها محمية جزيرة سنقنيب التي تحتوي على غرائب وعجائب الحياة البحرية والنباتات والشعب المرجانية ورحلات الغوص. في إحدى ليالي المهرجان وبعد أن انتهيت من إلقاء إحدى القصائد، توافد عليَّ جمع غفير من أهالي المنطقة حيث يقطنها من القبائل عامر والهدندوة والرشايدة، وفي كلهم خير وألحوا علينا بقبول ضيافتهم وأكرمونا أيّما إكرام.

ولا بد أن تعرج على سوق السمك في بورتسودان أو ما يعرف بـ (سلبونا) وهو سوق سمك يقع على البحر الأحمر تحيط به المطاعم والمقاهي العائمة، وهي تجربة فريدة تستحق الزيارة. وعلى مقربة من بورتسودان تقع مدينة أو ميناء سواكن حيث انطلقت منها عن طريق الباخرة متجهاً إلى جدة في إحدى الإجازات وكانت تجربة سفر جميلة وفريدة لا تُنسى في فترة الشتاء وتحت زخات المطر وضوء القمر.

وكالعادة في طريق الرجوع إلى الخرطوم من بورتسودان، كان لا بد أن أستكشف المناطق الشرقية على مهل ومكث، ورافقني أحد الأصدقاء في هذه الرحلة إلى المجهول. فكلانا يجهل الطرق والأماكن والوسائل، ولكن هو السفر لأجل السفر والاستمتاع بالثقافات والعجائب. سمعنا عن مصيف يقال له أركويت، يقع على جبل يُقال له جبل الست لأنه يطل على ست قرًى، ويقع هذا الجبل على مرتفع عال جداً فوق السحاب، فقررنا زيارة هذا المصيف الجميل. قادتنا الأسئلة والاستفسارات من عامة الناس في بورتسودان إلى موقف باصات في "هيا" وهي مدينة أو قرية قريبة من بورتسودان، وكنا قد وصلناها قبيل

المغرب فلم نجد أي حافلة تقلنا. سألنا بعض الأشخاص عن وجهتنا فقلنا لهم أركويت، وإذا بهم يتدبرون لنا بوكسي أو تاتشر (شاحنة) يقودها أشخاص من الهدندوة ليقلونا إلى أركويت. وقبيلة الهدندوة هي إحدى قبائل البجة المعروفة والشرسة حاربت حرباً طويلة ومشرفة ضد الاستعمار الإنجليزي وكسرت ما يعرف بالمربع الإنجليزي في نظرية تُدرس في كبرى الجامعات العسكرية ويطلق عليهم الإنجليز لقب (فزي ويزي) ومنهم قائدهم الشيخ المجاهد والشهيد عثمان دقنة رحمه الله المعروف بأمير الشرق.

مررنا بمناطق قبائل البجة صعوداً إلى أركويت، ولا نعلم أين سنبيت أو ما إذا كانت هناك أماكن متاحة للمبيت ولكن (اعقلها وتوكل). وما إن وصلنا إلى هناك حتى فوجئنا بالضباب أو كما يسميه البجة بـ(الشبوره) والجو البارد يملأ المكان. وعلى عكس بورتسودان، كان الظلام دامساً ولم نرَ شيئاً واضحاً، وفجأة توقفنا أمام سور كبير لمبنى يكاد يكون الوحيد في المنطقة، وإذا به فندق ضخم وحديث مجهز بكل الوسائل والضروريات. بل وجدنا الكثير من العرسان باختلاف جنسياتهم يقضون شهر العسل في هذا المكان الهادئ والمنعزل. أخذت غرفة أنا وصديقي ونمنا فيها بعد أن تناولنا العشاء في الفندق إلى الصباح الباكر.

وفي الصباح بدأنا رحلة الاستكشاف، ورافقنا شيخ كبير ليدلنا على المعالم والطرقات خصوصاً مع وجود الضباب، فزرنا ضريح القائد عثمان دقنة رحمه الله، وتجولنا في أرجاء المنطقة البكر حيث كان المطر يتساقط علينا خفيفاً وتكتسي الأرض بالخضرة والمزروعات.

ويطل هذا المكان على بورتسودان وسواكن وهيا وكسلا حيث نهر القاش وجبل توتيل الشاهق والبحر الأحمر. إنه جنة من جنان الله في أرضه، وندمت لأنني لم أزر هذا المكان من قبل ولم أشد إليه رحالي، فبين طبيعة خلابة ومناخ بارد نسيم وأهل مكان مضيافين مرحبين، كانت كل هذه الأسباب ما دعانا أن نبقى ثلاثة أيام كاملة في هذا المكان الساحر الأخاذ.

بعد التخرج من الجامعة، وقبل استلام الشهادات وحفل التخرج، كنا في إجازة قصيرة لا بد لنا من استغلالها. وبالتأكيد فلا أجمل وأنفع وأمتع من السفر والترحال بين البلاد والعباد واستكشاف وزيارة الأماكن التي لم نزرها قبل ذلك. فكانت النية والعزيمة، وشددت رحالي وتجهزت لرحلتي التي بدأتها بالتحرك نحو ولاية الجزيرة، التي تبعد نحو 186 كم تقريباً عن العاصمة الخرطوم. تشتهر ولاية الجزيرة بالزراعة والأراضي الزراعية الخصبة الواسعة وخصوصاً مشروع الجزيرة المعروف حيث كانت الجزيرة مصدرة للقطن ومختلف المحصولات الزراعية قبل أن يتوقف هذا المشروع الضخم. مررنا في طريق الذهاب إلى الجزيرة بقرية صغيرة يُقال لها طيبة الشيخ عبد الباقي، ويقال أنه رجل صالح توفي منذ زمن بعيد وله ضريح في هذه القرية التي سُميت باسمه. وكذلك تحتوي هذه القرية على خلوة، والخلوات كثيرة جداً في السودان وهي عبارة عن مدارس لتحفيظ القرآن الكريم وعلومه حيث يرسل إليها الأطفال قبل سن دخول المدارس وأحياناً في الإجازات المدرسية.

ثم توجهنا إلى المدينة المركزية في ولاية الجزيرة وهي مدينة

ود مدني، وتقع على النيل كذلك وفيها منطقة حنتوب وفيها جامعة الجزيرة التي يدرس فيها غالبية الطلبة المبتعثين في التخصصات الطبية. وكذلك منطقة رفاعة وغيرها من المناطق الزراعية الريفية البديعة. تمتاز ود مدني والجزيرة بشكل عام بالبساطة والبساط الأحمدي في مختلف منازلها، فلقد أكرموني بالشكل الذي جعلني أشعر أنني واحد من أهل البيت وخاصة من حيث الأريحية والسلاسة، وتظهر هذه البساطة والعفوية في أغنية "مدني كيف؟ مدني كدا، والدنيا حلوة عايزة رضا" مثلاً. وتمتلئ الجزيرة بالقرى والطرق الصوفية وقبور الأولياء الصالحين كما يُقال في تلك المناطق، وسمعنا عدداً من قصص الكرامات لهؤلاء الأولياء والله يعلم صحتها.

بعد أسبوع تقريباً من التجوال والتنقل في مناطق الجزيرة، رجعت إلى الخرطوم لأكمل رحلتي إلى غير منطقة. كانت النية بالذهاب إلى المنطقة الشمالية التي كانت دوماً ما يشدني الشوق إليها وإلى زيارتها فركبت من الميناء البري حافلة متجهة إلى المنطقة الشمالية مع صديقي الصدوق من قبيلة الشوايقة. اتجهنا إلى مسقط رأس صديقي وهو قرية كريمة حيث يقع جبل البركل التاريخي وأهرامات حضارة "نبتة" العريقة حيث سجلت هذه الآثار كمعالم للتراث العالمي. تقع كريمة على بعد 400 كم تقريباً شمال العاصمة السودانية الخرطوم، ومررنا بقرية تنقاسي في الطريق بجانب مروي وتشتهر بزراعة النخيل كمعظم المناطق الشمالية وتقطنها قبائل الشوايقة والحسانية والهواوير وغيرهم وفيها سوق الثلاثاء المعروف في المنطقة الشمالية.

بعد ذلك دخلنا كريمة، ومن المفارقة أن قبيلة الشوايقة يكثر

عنهم النكات حول بخلهم وحرصهم الشديد، ولكن ما بالك بقوم اسم مدينتهم كريمة! نزلنا في أحد منازل أقرباء هذا الصديق ولم أجد غير الترحاب البالغ والشديد والضيافة المبالغ فيها جزاهم ربي خير الجزاء، فوالله تعلقت بهم ورغبت في عشرتهم الطيبة ورفقتهم الجميلة. تنقلت من منزل إلى منزل في مناطق مختلفة كشبا والجرف وكريمة والعباسية وغيرها من المناطق وفي كل منزل وجدت الترحيب من أصغر مَنْ في البيت إلى كبيرهم ومن شيخهم إلى الحبوبة (وهي الجدة). وفي كل منزل كانت تسلم عليَّ الحبوبة وتحملني بالتمر والبلح والحبوب كهدايا إلى أهلي وبلدي كما كانت تقول وتوصيني جزاهن ربي خيراً وأطال أعمارهن. ولكن رغم هذا، كان الشباب قلة في هذه المناطق، فأغلبهم قد هجر المنطقة وسافر إما إلى العاصمة الخرطوم وإما إلى خارج السودان بحثاً عن العمل. وليتهم لم يلقوا بالاً للعولمة وتأثيرها وأبصروا الكنوز من حولهم، فمنطقة زراعية، وجو بارد عليل، ونهر النيل من حولهم يسقي المزروعات والأهم جبل البركل.

جبل البركل هو جبل تاريخي يطل على مزارع النخيل ونهر النيل ويبلغ ارتفاعه نحو 100 متر تقريباً. ويحيط به من أسفله عدداً من الأهرامات التراثية وفندق سياحي صغير شيد على الطريقة الإفريقية ساهمت في تشييده مستكشفة وسائحة إيطالية كما يُقال، ويكثر عند جبل البركل السواح الأجانب أو كما يطلق عليهم (الخواجات). سحرني البركل وشدني بكل ما فيه من روعة وجمال، فالعرب كانت دوما تعشق المرتفعات والجبال العالية للترويح عن همومها وبث شكاياها، فكيف بمرتفع شاهق كهذا يطل على زروع النخل الممتدة مدّ

البصر ومن خلفها نهر النيل؟ إنه منظر يستحق شد الرحال إليه بلا شك!

صعدنا إلى قمة الجبل المستوية وبقينا هناك حتى غروب الشمس ودخول الظلام وحدنا أنا وصديقي حيث يغادر الجميع فور غروب الشمس، وأذكر كيف تبادلنا القصائد والأحاديث في هذا الجو الجميل والنسيم العليل وهناك تعرفت على فن الطنبور وهي آلة موسيقية سودانية تشبه الربابة لها أشكال وأنواع وطرق عدة على امتداد السودان، ولكنني أعجبت بالطنبور الشمالي خصوصاً عندما تسمعه بصوت الفنان الشايقي محمد النصري، إنه فن يعزف على أوتار القلوب والمشاعر. قمت بإشعال النار على قمة البركل تحت منظر النجوم والسماء الصافية وصوت خرير الماء، جنة من جنان الدنيا. الطرافة، أننا ما لبثنا حتى جاء بعض من رجال القرية ليصعدوا الجبل عندنا ليستعلموا عن أمر النار فكما علمت ليس معهوداً عندهم إشعال النار وعلى قمة البركل، فظنوا أنه ضرب من الجن أو العفاريت! وبالتأكيد مكان زاخر بالجمال مفعم بالسحر والروعة، كان لا بد أن يشد حروفي ليرسم قصيدة يُتغنّى بها، فكانت القصيدة:

- قصيدة جبل البركل، موجودة على شبكة اليوتيوب:

مانـي مـن اللـي حدهـم شـارع النيـل

ولـلا مـن اللـي كيفهـم مطعـم أمـواج

شـفي بهالدنيـا أخـاوي رجاجيـل

اللـي خـذوا مـع سـكة الطيـب منهـاج

مـن جيـت للدنيـا وانـا معـرف الميـل

ادري مـن الخيـر وداري مـن الـداج

البارحه لامست روس المخاييل
بالبركل البارح على الرجل دواج

اشرفت راس البركل موايق النيل
واثري لهالمشراف من وقت محتاج
غابت علي الشمس واقبل عنا الليل
واتزاحم بصدري من الماضي أفواج
وانبعثت الدمعه من قبورها سيل
وأبيات حزني بحرها موج وهاج
صاحب وشبة نار والبرد وسهيل
واشياء خلت ضيقة الروح تهتاج
الله على اللي راح واوفيته الكيل
اللي شعلت القلب في ليله اسراج
قفى وقفت من وراه التعاليل
واليوم ليلي صمت بس صمت بازعاج
ليته قبل ما شد شال الغرابيل
اللي ودعها في صدر بير هداج
يا نيل وين الحب وين المراسيل
وين الذي للقلب من همه اعلاج
يا نيل مثلي دنيته هدت الحيل
شفنا من الدنيا تكادير واعجاج
ما عادني حمل الليال المقابيل
القلب كعبه واسود الوقت حجاج

يا نيل رويت النخل والمحاصيل
ما ظنك بتروي ظما شوق وهاج
مشتاق له يا نيل طالت بنا حيل
طال الجفا طال انتظاري للافراج
بس مشكلة شاعرك يا نيل بالقيل
ما بيح المغليه منعاً للإحراج
اقفى وخلاني اجر المواويل
كني عويف بغفوة الناس دراج
"صيح بقهر صيحة عشق ريل يا ريل"
والصدر كثر الضيق غادي له اخلاج
يالله عسا تجعل حياتي تساهيل
وانسى هموم الحب في فلة احجاج

يا صاحبي معليش يبن الحلاحيل
يالشايقي مثلي من الناس هجاج
يمكن سرحت شوي هات المعاميل
واضبط قناد الراس ما غيره اعلاج
لو ضقت بالبركل وانا موايق النيل
أشوى ولا روحة دنيات الافجاج
مسباح في يدي وبالراس منديل
اطلق عنان الروح ما حولك اسياج
صاحب وشبة نار والبرد واسهيل
ما هيب شارع نيل أو مطعم امواج

ومن باب المعرفة، لقد كنت أذهب إلى كل هذه الأماكن بلباسي التقليدي؛ الثوب والشماغ والعقال وخلافه فلم أجد غير الترحيب والضيافة الحسنة، فسقى الله البركل والشمالية والنيل وكل السودان على هذه الذكريات الجميلة والأوقات الخالدة في الذهن والفؤاد.

-7-

الفاتنة السمراء

قد تجد الحب في كل الأديان.. لكن الحب نفسه لا دين له.

جلال الدين الرومي

الفاتنة السمراء، لا تزال الهاجس الذي يراود الفؤاد كل حين ويشغل البال والقلب في كل وقت. لم ولن أكل أو أمل من السعي الحثيث نحو الهدف وتحقيق المراد ونيل الوصال، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل وبحبوحة الرجاء. عينان كعيني الصقر جارحتان ترميان بأحداقهما وألحاظهما كل ناظر ومتيم فتقتلانه شر قتلة وترميان سهامهما يمنة ويسرة نهاراً جهاراً. لماذا هي بالذات؟ ما الذي جذبني؟ البنات كثيرات فلماذا الإصرار؟ كل هذه الأسئلة وغيرها لا أعتقد أنني أملك لها جواباً شافياً ورداً مقنعاً، فالأرواح والقلوب من صنع الذي أبدع كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، فهو سبحانه يقلب القلوب والأبصار ويربط بين الأرواح والأنفس فيقارب بين هذه ويباعد بين تلك وله في ذلك شؤون وحكمة بالغة وإن خفيت وعميت علينا.

منذ السنة الأولى في الجامعة وبمجرد الوقوع في شباك عينيها

الواسعة الظليلة والتعرض لسهامهما الناجعة وقبل أن أعرف اسمها وشأنها، كان الارتباط الروحي قد بلغ منتهاه ووصل ذروته في سماء الهيام وفضاء الوله. عندما كنت أمر بجانبها في الجامعة خلال سنوات الدراسة، كانت الأنفاس تضطرب صعوداً وهبوطاً وضربات القلب يكاد يسمعها من حولي ولو بذلت كل جهدي لمواراتها وإخفائها. في ذات يوم كنا بانتظار أحد الأساتذة حيث تأخر عن موعد المحاضرة وكان الطلاب في حيرة هل يذهبون ويخرجون من الجامعة أم عليهم الانتظار لمعرفة ما إذا كانت المحاضرة قائمة أم لا؟! وبين لحظات الانتظار هذه، توجهت قاصداً قاعة المحاضرات لأعرف ما حال المحاضرة وأخبارها، وإذ بي أرى الفاتنة السمراء مع إحدى صديقاتها تتجه صوبي راجعة من قاعة المحاضرات، فقلت لنفسي لعمري هذه الفرصة ولا نجوت إن لم أقدم على خطوة وبادرة، وحمداً لله على الشجاعة التي استجمعتها تلك اللحظة وكان ما أردت أو بعض منه:

- (مددت يدي نحوها دون صديقتها لأصافحها) السلام عليكم.
- وعليكم السلام والرحمة.
- فيه محاضرة؟
- (أجابتني.. والله لم أعرف بماذا أجابتني فلقد تغشاني هالة من الهيام والذهول والسرحان في ملامحها الملائكية ما ربي به عليم).
- شكراً، مع السلامة.

كان هذا السلام وهذه المصافحة الوحيدة التي مددتها إلى فتاة بالجامعة، ولا أدري لماذا لم أنطق بغير السؤال عن المحاضرة؟! كنت

حينها بالسنة الأولى، وأعتقد أنه كان إنجازاً وقتها بالنسبة إليّ. ولكن للأسف لم أتمكن من معاودة الكرة أبداً حتى تخرجت ولم أستطع تقديم نفسي أو محاولة التعرف إليها أبداً، ولا أدري ما الذي منعني؟! كنت أسمع الكثير من الشائعات حولها عن طريق الأصدقاء الذين يعرفونها، فتارة يقولون لي مخطوبة، وتارة مرتبطة، وتارة كذا وكذا.. حتى أصبحت في حيرة من أمري ولم أدرِ ما أصنع في بليتي هذه.

في السنة الثالثة وما بعدها بدأ طلاب وطالبات الدفعة بمعرفة مشاعري تجاه هذه الفاتنة السمراء، بل وحتى من تهوري ومجازفتي وعدم تفكيري في العواقب، فالعاشق الولهان يسكر ويثمل عشقاً وحباً وريداً، قمت بكتابة اسمها على كل طاولات القاعة، وجدرانها وبابها، حتى إن الأساتذة أصبحوا يشيرون إلى الطلاب باستخدام هذه الكتابات (انتا اللي قاعد تحت حرف كذا قوم على حيلك) وهكذا. تمنيت أن أفاتحها بكل ما يدور في خلدي ويعتصر ويكتوي بفؤادي، تلك الكاملة حسناً والطاغية أنوثة والجميلة قلباً وقالباً. ولكن كانت رهبة العشاق سيدة الموقف، وصبر الوالهين زاد الطريق، فإلى متى؟ وأين أمضي؟ وكيف السبيل إلى وصالها والفوز بقربها فدتها نفسي وقلبي. أتمنى لو أنها تعرف شعوري هذا نحوها أو سمعت عنه من هنا أو من هناك.

لم أحاول التواصل معها إلا مرات قليلة بعد أن تخرجت وعدت إلى البلاد. ولكن أعتقد أن هذه المحاولات قد جاءت متأخرة عن موعدها ولكن أتمنى أنها متأخرة فقط، ولم تفوت الموعد بالكلية جملة وتفصيلاً. كنت في صبري وعفتي وتعففي وقلة محاولاتي في التقرب منها أيام الدراسة محاولة مني لإخبارها أو تبيين جديتي

في رغبتي بهذه العلاقة حيث كنت أرى الكثير من الشباب أصحاب العلاقات العابرة، ولم أكن أريد أن أظهر بهذا المظهر معها خصوصاً كوني الطالب المبتعث الغريب في الجامعة. كنت أطمح أن أخبرها بأني لا أريد سواها ولا أبغي إلاها عشقاً وحباً وارتباطاً مقدساً. كانت كالنيل شعراً وقصائد، حيث كانت وما زالت ملهمتي وباعثي على كتابة قصائد تقطر من جوف الفؤاد شوقاً وتحرقاً إلى اللقاء.

كانت الأشعار والقصائد تكاد تكون متنفسي الوحيد وشكواي وملاذي، وحمداً لله الذي رزقني برفاق كانوا يحبون الشعر وبعضهم شعراء من الطلاب المبتعثين وهم عدة وكثر ولكن أذكر منهم عبد الرحمن الغربي حيث كان يدرس الطب معنا في السودان، فكنت دوماً ما أناجيه بأحوالي وما آلت إليه نفسي في الهوى والعشق، وكنا مع بقية الأصدقاء نتبادل القصائد والأشعار والتسلية عن هموم الصدر وزفراته. كنت أتمنى أن أشاركها بقصائدي وألقيها على أسماعها لتتشنف الحروف بسمعها وأنفاسها، وأتمنى وما زلت أتمنى ولن يزول الرجاء. من القصائد التي أوردتها في حالي وحالها مناجاة إلى الرفاق والزملاء:

- قصيدة وشيلة نُشرت في جريدة الرياض، يوم السبت 15 محرم 1433هـ، الموافق 10 ديسمبر 2011م:

يا سعود هالدنيا على الكيف ما جات
ودي وودك والزمن له ميوله

وش حيلة اللي مات قلبه! ولا مات؟
والجسم كثر الشوق زايد نحوله

والـيـوم مـن دمـعـي لـك الله مقتات
دمـــع الـيـتـيـم الـلـي بـلـيـا حموله
كم تهت بدروبي على غير مشهات
مثل الـولـيـد! الـلـي تناسى فضوله
الحظ مايل والمصايب جماعات
والخاطر المكسور زادت حموله
مــرات اصــون الـسـد وابــوح مـرات
وجــدي وجــود الـلـي مضيع ذلوله
في قفر ما له غير بعض المناجات
فـي قولة (الله) ذيـك أقصى حلوله
يا سعود كم لي محتريها ولا جات
وان جـات! غير الجرح لا ما تطوله

- وهذه القصيدة المغناة التي نُشرت في جريدة الرياض يوم الأربعاء 18 ربيع الأول 1434هـ، الموافق 30 يناير 2013م:

يا فهد يفداك قلبٍ ما تهنى بالطفوله
انولد شيله ثقيل وشال عن شيله ثقيل
له حموله مير ما شالت معه اثقل حموله
شاف من دنياه ما خلاه يرضى بالقليل
من حبيبه ما تهنى من رفاقه ما صفوله
يعلم الله كيف صابر؟ كيف مدري ما يميل
يا عضيدي لو تموت الآه في النفس الخجوله
ما تموت الهقوه اللي تحتري طلة خليل

انتظرته يا فهد دام الرجاوي أملوله
واقنعوني في غيابه اشرب الصبر الجميل
في يدي فنجال صبري ما شربته دام زوله
غايبٍ عني وانا من دونه اسمع فالمقيل
التفت شيخ الهقاوي قال مطلوبك تطوله
اشرب الفنجال وابشر لا يهمك لا تشيل

اقنعوني يا فهد واليوم عاد العيد حوله
لا نفع صبري ولا قضى حوايجه الدخيل
شمس حرمان المشاعر جففت ارض الحموله
وارتحل شيخ الهقاوي عن بلاد اضحت محيل
واتركوني شخص حاير من يعدد له حلوله
والقوافي تسحب اثيابي تبي حضن الكحيل
عزتي يوم القوافي لاح زولٍ لوحوله
لين ما مر وتعدى عذبوني بالعويل
يا وجودي وجد دمعٍ ما قوى يجبر هطوله
ان جرى للناس شرهه والوقوف اصلاً ثقيل
يا فهد حزني طواني واكتسب دور البطوله
صار فارس والفرح شايب وبفراشه عليل
يا سقا الله يوم كان السعد مكثرها خيوله
والأمل يصحى من ارقاده على صوت الصهيل
خايفٍ والموت خطفاته تجي دايم عجوله
من يبالي للقوافي من سوى ذاك الحليل

يا فهد شيبي بدى في وجه زايد في نحوله

واصبحت كل الليالي بالضيا بدرٍ كميل

والقوافي يا فهد ما عاد نظرتهم طفوله

نظرة الشفقان للي من بعد عزه ذليل

حان موتي لا محاله يا عيالي لي مقوله

المحبه هي غريمي فاطلبوها والدليل

عمري اللي راح لجل الحب في رجوى حصوله

كم زرعت الصبر في أرض الهوى ما له حصيل

واجتمع جمع القوافي حول راسه في رجوله

كفنوا روحه وراحـوا ما بكوه الا قليل

قال أوسطهم تموت الآه في النفس الخجوله

ما تموت الهقوه اللي تحتري طلة خليل

- وهذه القصيدة التي نشرت في جريدة الرياض الخميس 3 جمادى الآخرة 1435هـ، الموافق 3 أبريل 2014م:

يا صاحبي والـيـوم وش ينفع النوم

نـمـنـا وطـاريـهـا ورانــا ورانــا

الـعـام اشـوفـه كـل مـا غـفـوا القوم

والـيـوم حتى الـقـوم مـا هـم معانا

وجدي وجود اللي عن الديد مفطوم

لا يـا وجــودي يـوم شـد اقـصـرانـا

كـان الأمـل بالزين يبقى على الـدوم

واثــر الأمــل لامــن بغينا عصانا

تطـري سـواليفه علـى قلـب محـروم
يـا قلب صـبـرك مـا ضنينك وزانـا
لا يا عظيم الجرح في قلب زيـزوم
جـوري وجـورك يـا خفوقي وفانا
فـرقـا ولـيـف الـروح نطاحة اعـزوم
يـا الله عسانا صبر يـا الله عسانا
ياخوك جـاك القاف مبني ومعصوم
تكفى تـرد الـقـاف شـورك علانا
وان كـان مـا رديـت يـاخـوك معلوم
الـلـي تـزوج نـعـذره لـو نسانا

بين منطوق لم يُقصد، ومقصود لم يُنطق..
تضيع الكثير من المحبة.

جبران خليل جبران

لعل هذه الأبيات والقصائد قد لامست القلوب كما خرجت من شغاف القلب، ولعلها استطاعت أن توجز ولو الشيء القليل مما تكنه الصدور وتحتويه الأفئدة في عشق هذه الفاتنة الأصيلة وحبها. عشقت اسمها المميز ورسمها الرباني النادر، حفظت كل ما تحب وتكره، تريد وتبغض، حاولت معرفة أي شيء وكل شيء أستطيعه عنها، فبطاريها وأخبارها يسلو الفؤاد عن شيء مما به ويجد السلوان والصبر عما يقاسيه ويعانيه. قصة الفاتنة السمراء لا تنتهي ولم ولن تنتهي، فالحب لا يعرف تاريخ الصلاحية، والوجد والشوق لا يفسد ولا يهدأ، ومياه

الريد لا تجف ولا تركد. في كل صلاة وسجود وحركة وسكنة، بل وفي كل طواف في البيت العتيق نطلب من الله لاهجين بذكره راجين عفوه وتوفيقه في أن يحقق مرادنا وينجز آمالنا مع هذه الفاتنة السمراء في القريب العاجل بعظيم فضله وواسع منه بعد أن عجزت واسطات البشر وسدت أبوابهم وقطعت دروبهم، يبقى باب الرحمن مفتوحاً لا ينغلق، والرجاء فيه ممدود لا ينقطع، فهو رجاء العاشقين وواصل القاطعين ومحقق الآمال منجز الوعود رحمن رحيم. وكما أن القصة لن تنتهي، فكذلك المشاعر والقصائد والأشعار التي تنبع من صميم القلب وشغاف الأحاسيس فلا تنتهي ولا تنضب ولا تُعد ولا تُحصى، ولعلي أورد بعضاً وقليلاً من هذه القصائد التي نظمت لها وفيها وعنها وحولها علها تجد لها طريقاً يلتمس وصلاً إلى قلبها الرقيق وفؤادها الحاني:

- قصيدة نُشرت في جريدة الرياض السبت 23 رمضان 1433هـ الموافق 11 أغسطس 2012م:

الليالي فراقك والمواصل سراج
والفرح يا حياتي شي ضد الزعل
المشاعر وورودك والمحاني زجاج
وان كسرت الزجاجه وردكم ما ذبل
يا ورود المحبه خافقي لك سياج
يعلم الله لغيرك ما بقلبي محل
يا حياتي احبك ما لحبك علاج
والشهاده حبيبك مات لولا الأمل

ضاق صدري يبي قربك وفل الحجاج
صدقيني تـرى بعض الهوى ما قتل
علمتني حياتي وش يكون احتياج
والـزمـن يـا حبيبي بالعنا مـا بخل
لـو يجينا زمنا يـوم حسب المزاج
كـان ما ظل جـرحٍ وسطنا ما اندمل

- وهذه القصيدة التي نُشرت في جريدة الرياض الثلاثاء 7 صفر 1435هـ، الموافق 10 ديسمبر 2013م:

ياخي تصدق صاحبك فاقدك حيل
فـاقـد ديـــارن ضـــاع فـيـهـا شبابي
ذقــت الحلا فيها وذقــت الغرابيل
وان ضقت فيها ذقـت مـر اغترابي
مـشـتـاق للبركل ومـشـتـاق للنيل
دامـــي شربته كيف ابنسى شرابي
عشنا عمر فيها على كيف مـا قيل
يــا عـونـة الله غـيـر وجـهـه خـرابـي
فيها عرفنا وش يضيم الرياجيل
وش قيمة الـخـلان وقــت المصابي
يــا طير لــو غـربـت خـذهـا مراسيل
لــديـار عنها ويـــن حـظـي سـعـا بي

خذها ســلام الله على ريحة الهيل
لــو تكتم الأشـــواق يـــا طير هابي

يـا طير لـو تـدري؟! تجر المواويل

عـن دار فيها عشق وقـت التصابي

دلـوع غـرشـوب(ن) عيونه مظاليل

فيها سـمـار الـقـمـح سبـة عـذابـي

واحجاجها جنحان حـر(ن) مفاليل

وعـيـون سـود(ن) سهمها مـا يعابي

والشعر ليل(ن) ما يبي شبر تطويل

والـخـصـر لا قـام ايتثنى سطا بي

لـو هـي حقيقة كنها كـذبـة ابريل

وان هـي خيال آشوفها كالسرابي

وش حيلة اللي ما عرف سكة الميل

آشـوفـهـا يـا طـيـر واعـض نـابـي

يـا نفس صبرك لـو تزيد الـولاويـل

مـا كـل مـا تبغيه عـنـدك يجابي

يا نفس مثلي من ظهور الحلاحيل

حـتـيـش بـالـغـربـه مـخـلـي ثيابي

مـن عـز نفسه مـا يـذوق البهاذيل

لا خير في رجـل(ن) رخيص الجنابي

يـا زيـن حبك يقتل القلب تقتيل

لـكـن عـيـال الـعـز تـصـبـر وتـابـي

يـالله عسا دارك صـدوق المخاييل

تـمـطـر وتـحـيـي مـيـتـات اليبابي

يا رب وان ضاقت فلا غيرك اتعيل

يــوم الـبـعـث يــا رب يـمـن كتابي

وان قلت لك يا صاحبي فاقدك حيل

يـشـهـد عـلـي الله مــانــي محابي

مـشـتـاق للبركل ومـشـتـاق للنيل

والـيــوم ويــن الـحـظ عنهم سعابي

– وهذه القصيدة التي نُشرت في جريدة الرياض الخميس 7 شعبان 1435هـ، الموافق 5 يونيو 2014 م:

يــا مــن يــرد الـصـوت عنه غــدا وين

الصاحب اللي يا عـرب زيــن طرياه

مــا لــي عــن الغالين سلوه وتمكين

اللي على كبد الشقي يفرجوا داه

شـــان الـــزمـــان ولا لقينا مسلين

ويـــلاه يـــا وقـــت الـــردا منك ويـــلاه

احـــدن ينام الليل مـــا يرمش العين

واحـــدن ينام الصبح من حر ما جاه

يـــامـــا بكينا فـــوق الأطـــلال يـــا زين

حـتـى بـكـتـنـا كـثـر مـحـنـا بكيناه

وجـــدي وجـــود اللي له اليوم تسعين

عـنـه غـــدا أكـبـر عـيـالـه وخـــلاه

يـــالله وحـــنـــا صـــايـــمـــيـــن ومصلين

تــفــرج عــلــيــنــا ضــيــقــة الـــهـــم يـــالله

- وأخيراً وليس آخراً، هذه القصيدة القريبة من قلبي، والتي نشرت في جريدة الرياض، يوم الأربعاء 24 شوال 1435هـ الموافق 20 أغسطس 2014م:

والله لـو مـا بـه مـرايـات بالكون
مـا كانها يـا نـون لـك عـدة اشباه

يـا واحـــده مـا بين مليون مليون
لا يـا وحـيـدة خافقي يـا دوا داه

لو كانت حـروف العرب كلها نون
هـرج الـعـرب مـا كـان والله تركناه

في ناظرك عـزه بها الموت مقرون
ترمي بوسط القلب ما يقطع اشلاه

واحجاجك اللي سيف بالهند مسنون
آحـد واقـطـع عند وقـت الملاقاه

يـا نـون نهر النيل مـا كـان يطرون
إلا بعد ريـقـك تخالط مـع امياه

يا أكرم من الغيمه ويا أنفع من العون
وألمع من سهيل اليماني لمن تاه

يـا عـود مـوزٍ خالطه ريـح دحنون
يـا منتهى احـلام المعنى ورجـواه

يالحلم يـالـواقـع ويالطعم ياللون
حاجه بعرف الـزيـن فـوق المغالاه

لـو كـان بـه بالكون يـا نـون مزيون
زيـنـك مجرتنا ولا تلحق ادنـاه

مـجـنـون! لا والله ثمانين مجنون

مجنون مـن زينك يشوفه ولا جاه

الله من قـلـب(ن) مع الحب ممهون

مـا غـيـر هـم الـحـب والله معاناه

يا نـون ما غيرك لها القلب ماعون

دلـوك بعد الـصـدر فـي يـدك ارشـاه

ارحم خفوق(ن) في مواصلك مفتون

ما هزته بـنـت(ن) ولا عرفت اخباه

يـا نـون لـو مـا بـه مـرايـات فالكون

مـا كانها يـا نـون لـك عـدة اشباه

-8-

حفل التخرّج

كل بداية لها نهاية.. وهذه النهاية هي البداية لشيء آخر.

أفلاطون

بعد التجوال والترحال في أرجاء السودان وأطرافه، كان لا بد لنا من عودة، ولكل سفر نهاية ومقصد وإن لم نرغب بذلك. عدت إلى الجامعة لاستكمال إجراءات استخراج الشهادات والوثائق وتصديقها من مختلف الجهات والوزارات والسفارات ونحو ذلك، وهي إجراءات مقيتة طويلة تأخذ زمناً وجهداً كبيرين ولكنها لا تُقارن بجهد ووقت خمسة أعوام من الدراسة المضنية والمجهود المبذول فيها طوال هذه الأعوام. ولطول هذه الإجراءات التي قد تستمر شهوراً، استغللت هذه الفرصة وتقدمت بطلب قبولي كمساعد تدريس (تيوتر) في الجامعة، وتم قبولي ولله الحمد. كان راتب هذه الوظيفة يسيراً بسيطاً ويكاد يكون عينياً، ولكن القيمة المادية ليست هي الضالة المنشودة ولا الهدف المطلوب. بل حب العطاء، ومشاركة المعلومات ومساعدة الطلبة الأصغر سناً ومساعدتهم كان هو الدافع، وعلى الصعيد الآخر فإنه باب من رد العرفان لهذه الجامعة العريقة والصرح العلمي

المتميز ومساعدة وشكر للدكاترة والأساتذة الذين كانوا معنا خلال هذه السنين. فساعدت في مواد متنوعة، وشاركت في شرح تجارب المختبرات كذلك لطلاب السنة الرابعة والخامسة، ولله الحمد أعتقد أنني أديتها على أكمل وجه أستطيعه. بالأمس القريب، كنت طالباً أتلقى المساعدات والشروحات، أبحث عن حل لهذا وإجابة لذاك، واليوم ها أنا ذا في دور المعلم والمساعد الذي يمد العون لمن يليه. حياة تكافل وتعاون، وعطاء مردود ودائر بين الناس لا يفنى، فسبحان مقلب القلوب والأبصار!

استمررت كمساعد للتدريس فترة فصل دراسي تقريباً، ثم غادرت لظرف طارئ إلى البلاد، وقضيت هناك شهراً تقريباً قبل أن أعود لإنهاء إجراءات استخراج وتوثيق الشهادات. عندما عدت كان هناك عدد من حفلات التخرج قد عقدت وانتهت، حيث أنه بالنظر لعدد الطلاب الكبير من الدفعة، تم تقسيم الطلاب إلى مجموعات كل مجموعة تحيي حفل تخريجها في ليلة منفصلة. تبقت آخر مجموعة، فسجلت فيها لأشارك معهم في حفل التخرج، وعلى خلاف أغلب الطلبة المبتعثين، فإنهم يفضلون إقامة حفلات التخرج في بلدانهم حين يعودون، ولكن ما المانع أيضاً أن نحتفل في بلد الجامعة ومع شباب الدفعة، فلا شيء يشبه التخرج مع شباب دفعتك وطلاب جامعتك.

تم الاتفاق على حجز الصالة في نادي الضباط، وتم تحديد الوقت والتاريخ، واختار كل منا الأهازيج والمقاطع التي يريد أن يزف بها عندما يذاع اسمه لاستلام شهادة التخرج، فكان لكل طالب دقائق معدودة، ولكوني ضيف الدفعة وغريبها فقد أعطوني زيادة في

هذه الدقائق إلى الضعف تقريباً، فلا عدمتهم ولهم الشكر دوماً على كرمهم المعهود وجودهم المعروف. تم توزيع بطاقات الدعوة علينا، وقمت باستضافة عدد من السفراء وطاقم السفارة والأصدقاء من الطلبة المبتعثين، وكما تم توزيع أثواب التخرج علينا وتم تصويرنا بها في الجامعة وعلقت الصورة في لافتة كبيرة كإعلان للحفل في الجامعة.

في اليوم المنشود من الصباح الباكر، تجهزنا وركبنا سياراتنا المزينة كسيارات العرسان، واتجهنا نحو استديو للتصوير لنأخذ صوراً جماعية مع الطلبة المشاركين في حفل التخرج وصوراً فردية كذلك، وبعد هذا ذهبنا بطابور من السيارات في سيرة وزفة مصورة إلى أحد المطاعم المعروفة لتناول الغداء معاً، بصورة من الفرح والفخر والغبطة على ما حبانا به الله من نعمة التخرج على خير وسلام. وبعد أن أنهينا تناول الطعام، ذهبنا بالسيرة والزفة إلى الجامعة، لنجد الحرس الجامعي الموسيقي يستقبلنا استقبال الجنود الفاتحين، ويقوم بعزف المقطوعات الحماسية أمامنا ونحن نمشي خلفهم في طوابير ونجوب الجامعة وأقسام الكلية، ونستقبل تهاني الأصدقاء وطلاب الجامعة ونؤكد عليهم بالحضور للحفل الليلة. جو مهيب وحضور جميل وشعور لا يوصف، فراحة بعد تعب، وفرحة بعد طول عناء وانتظار، ربي لك الحمد حتى ترضى.

بعد ذلك انطلقنا إلى صالة الحفل في نادي الضباط، وشرح لنا كيفية الحفل وإجراءاته ومقعد كل طالب وما عليه أن يفعل، وابتدأ الحفل بآيات عطرة من القرآن الكريم، وبعد ذلك تم تقديم الحفل والتعريف بالدفعة والأساتذة الذين حضروا لتسليم الشهادات. كانت

طريقة الحفل، عندما يذاع اسم شخص ما ويذاع مكان ميلاده، يتم تشغيل ما اختار من مقاطع ليزف عليها ويرقص على أنغامها مع أفراد عائلته وأقربائه، والسودانيون اجتماعيون بطبعهم فتجد الكثير من أقرباء الشخص الواحد حضروا ومعهم الحلويات والمخبوزات لتوزيعها على الناس فرحة بتخرج ابنهم. كان من أشد المواقف تأثيراً في حفل التخرج، عندما يقوم الطلبة بالاختيار ضمن المقاطع لأغنية عن الأم أو الأب مثل (أبوي إن شالله لي تسلم) ونحوها، لم أعتقد أنني سأكون عاطفياً لهذه الدرجة أو أن أتأثر بهذه النقطة، ولكن عندما تسمع هذه الكلمات وترى الأم تحضن ابنها وتكفكف الدموع فرحاً بيديها وكذلك الأب يفعل، فهنا تمنيت وتمنيت أن يكون أهلي حاضرين ليشاركوني هذه الفرحة وهذا الفخر.

جاء دوري وأذاع مقدم الحفل اسمي وقدمني بالأشعار والقصائد فيبدو أن شباب الدفعة أخبروه بأنني شاعر، وبدأت المقطوعات التي اخترتها من وحي تراثنا الشعبي وتقاليدنا وشاركني في الفرحة الأصدقاء وطاقم السفارة مشكوراً ولعبنا الرقصات الشعبية المعروفة طوال فترة إذاعة المقطوعات هذه حتى انتهت وصعدت إلى المنصة لاستلام الشهادة والسلام على الأساتذة والتصوير والعودة إلى مقعدي، يوم مشهود وموقف مهيب وزاخر بالمشاعر المختلطة وغير المفهومة. وبعد الانتهاء من إذاعة أسماء كل الطلبة انتهت فعاليات التخرج وابتدأ حفل راقص شارك فيه الجميع بكل بهجة وغبطة وسرور وحبور.

انتهى فصل من فصول الحياة، ولكن الحياة لم تنتهِ، وما النهاية إلا بداية شيء آخر. فما زالت الفاتنة السمراء وما زالت الحياة تخبئ

لنا المزيد والمزيد. انتهت إجراءات شهاداتي وتوثيقها، وحانت لحظة الوداع وفراق السودان الحبيب، رافقني معظم شباب الدفعة إلى المطار ليودعوني، ووالله لم أتمالك نفسي حينها وبكيت بكل حرقة وصببت الدموع صباً على فراقهم وفراق السودان، فهناك عشنا وشببنا ونهلنا من نيله وثقافته. مرت كل حياتي الجامعية أمام ناظري حينها فتذكرت يوم وصولي إلى الخرطوم للمرة الأولى، وزيارتي للجامعة للمرة الأولى، وفترات الاختبارات والفاتنة السمراء والنيل والشمالية. كل هذا مر سريعاً أمام ناظري في تلك الليلة، كانت يدي مخضبة بالحناء وهو ما يسمى بخضاب التخرج، وكنت متوشحاً بسيف من سيوف الهدندوة جاءني كهدية وذكرى طيبة وجميلة من السودان وأهله.

كان موقفاً عصيباً وفراقاً مريراً لا أذاقه الله لأحد ولا جرعه لمخلوق، ولكنها سنة الحياة، فبعد اللقاء لا بد من افتراق وبعد الفراق لا بد من لقيا، وكما قيل (مصير الحي يتلاقى) وهذا ما كان، فقد زرت السودان مراراً وتكراراً ولا أزال أزورها وأزورها، وقابلت الزملاء والأصدقاء في مختلف الدول فالصداقة هي ما يدوم والذكري الطيبة هي ما يبقى وهي ما يحيي ذكر الشخص في حياته وبعد مماته. أتمنى أنني تركت أنصع صورة وأبيض بصمة، وذكرى طيبة يذكرني بها كل من عرفني. إنني لأرجو كل الصفح والغفران من أي شخص أذيته أو قصرت في حقه أو انتقصت من جانبه بقصد أو من غير قصد. مرت هذه السنوات بحلوها ومرها، ومواقف كثيرة لم تروَ فيها من الصعوبة والمرارة ما الله به عليم، ولكنه التغاضي والتجاهل والتناسي الذي به تدوم الحياة ويصفو عيشها وينعدم كدرها، والسلام.



يا نيل شرابك ظماك وتولهك
كافي معاد العمر حمل القطاعه

مرت ثلاث سنين وازريت لادلهك
وا خافقي به لاظي البعد لاعه

يا نيل لي خلن من الطيب يشبهك
اهون علي الموت لحظة وداعه

يا نيل لا تشره على قلب يندهك
لاني اشوفه فيك والقلب جاعه

يا نيل لو كل المخاليق تكرهك
ابقى معك يا نيل دون الجماعه

ياقلب صمت النيل ماهوب يسفهك
ماله جواب ودمعك يغص قاعه

يا نيل شرابك ظماك وتولهك
بس اسقني يا نيل صبر وشجاعه

حمزة الهاشمي





الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015

توزيع





ook.com/ASPArabic







eelwafurat.com - www.nwf.com نيل وفرات.كوم جميع كتبنا متوفرة في موقع